أولادنا

كنوز الملك سليمان

بقلم: عادل الغضبان

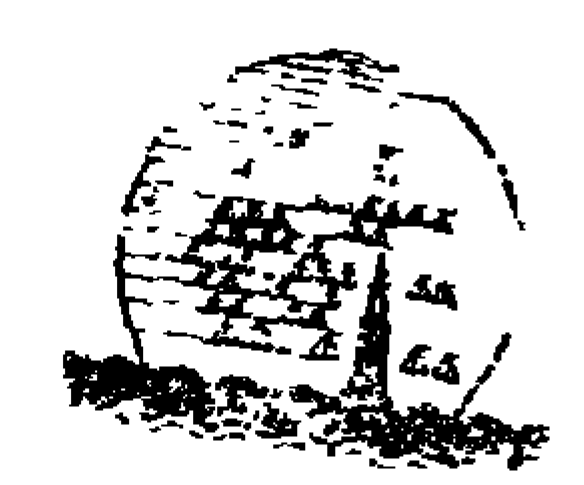


دار المعارف

كنوز الملك سُليمان

أولادنا

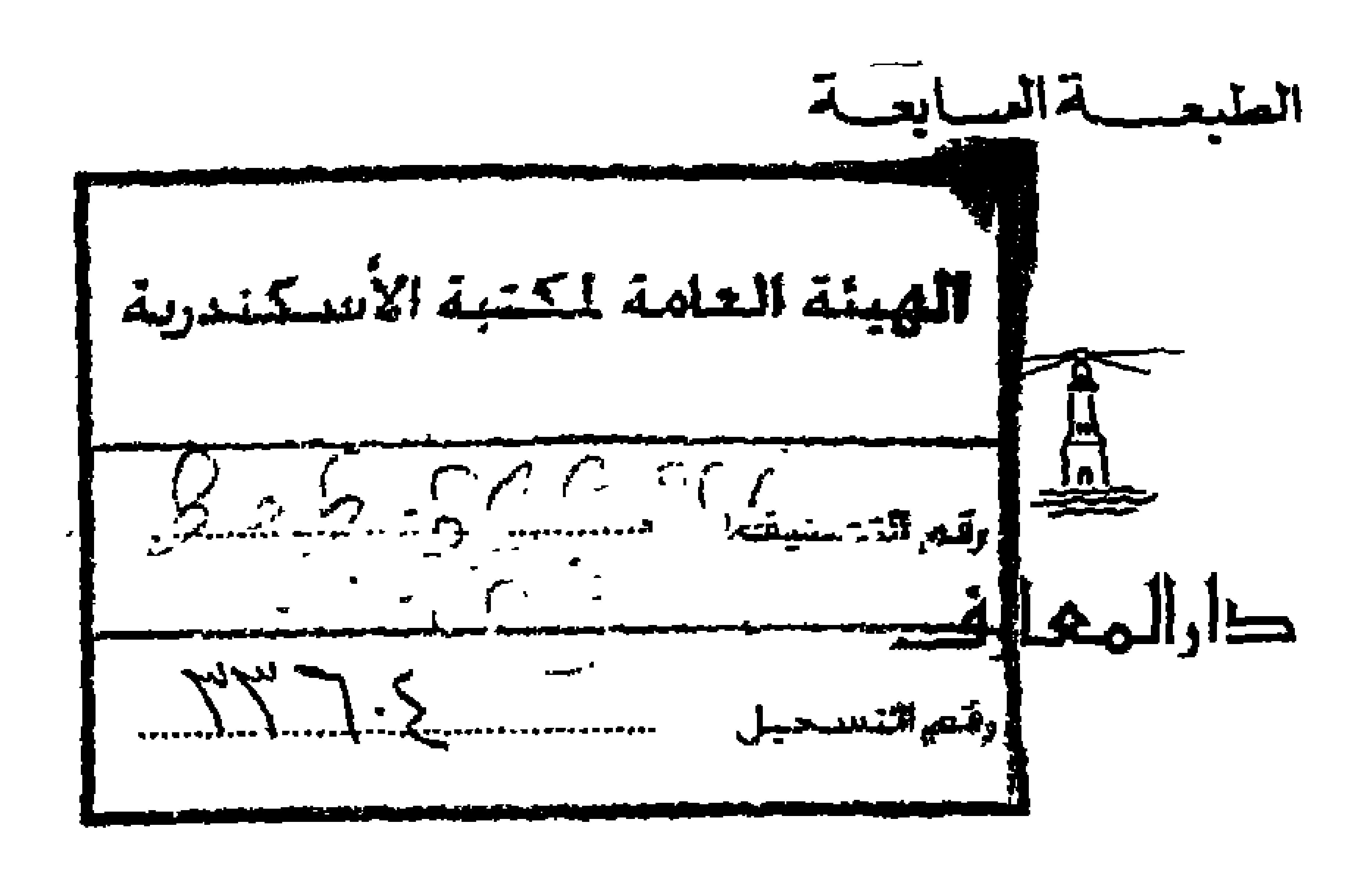
١٣



كنوز الملك سليمان

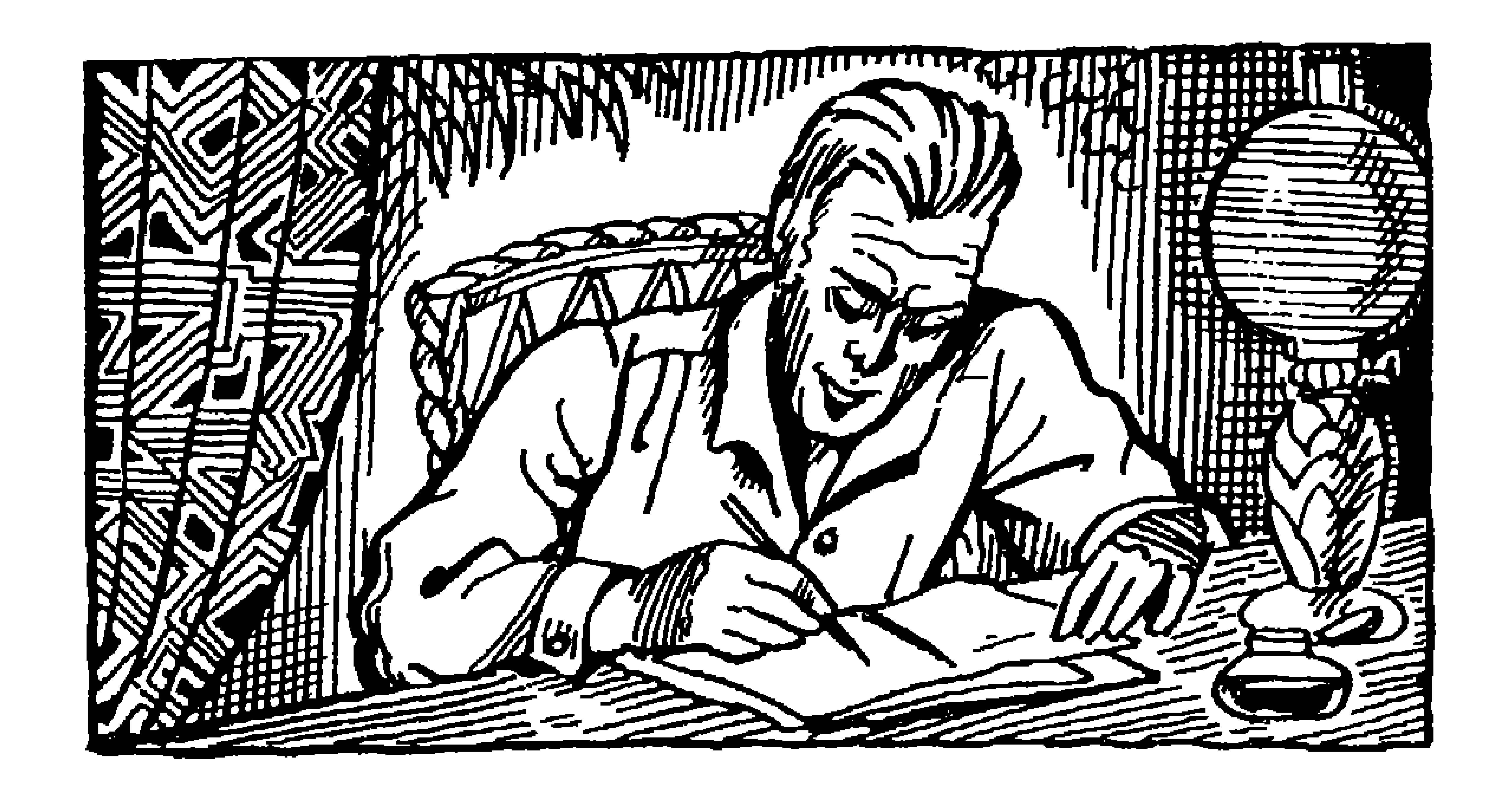
بقلم : عادل الغضبان

الطبعة السابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

قد يكون من غرائب الأمور أن أعمِد إلى الكتابة وأنا فى الخامسة والخمسين من العمر ، وما عرفت القلم قبل اليوم ولا عرفنى ، فإنى أبْعَدُ الناس عن الكتابة والتأليف ، فقد تركت المدرسة فى سن ٍّ مبكّرة ، وانصرفت إلى كسب رزقى فى مستعمرة « الكاب » بإفريقيا الجنوبيّة . ثم كنتُ على مَدار السّنين أزاول التجارة واستغلال المناجم ، وأذهب إلى الصيد والقَنْص ، وأنتفع من بيع ما أصيد وأقنِص ، ولكنّنى مع ذلك كله لم أوفّق إلى جمع ثروة تذكر إلا منذ نحو ثمانية أشهر ، فقد وقعت على ثروة ضخمة ، غير أننى قضيت فى سبيل الحصول عليها مدّة سنة ونصف سنة كانت مملوءة بالمخاطر والأهوال . . .

كنت قبل حوادث هذه القصة التى سأقصها عليكم ، قد أصبتُ بخسارة فادحة فى تجارتى ، أعقبتها حُمَّى خبيثة طرحتنى فى الفراش شهرين كاملين . فلما تماثلت للشفاء، قررتُ أن أصفى أعمالى ، وأبيع ما بقى عندى من سن الفيل ، وأعود إلى لندن لأقضى فيها بقية العمر فى هدوء وراحة ، وأكون قريباً من ابنى الذى يدرس الطب فى إحدى جامعاتها .

نفذت ما عزمت عليه ، وركبت البحر ذات يوم إلى ميناء « دربان » فلفت نظرى فى السفينة التى ركبتها رجلان أثارا فضولى .

كان الأول فى نحو الثلاثين من العمر ، مديد القامة ، طويل الذراعين ، عريض المنكبين ، يدل مظهره على القوة والبأس كأنه عملاق من العمالقة ، وهو إلى هذا جميل القسمات ، أشقر الشعر واللحية ، حاد البصر ، أنيق الإشارة ، فقدرتُ أنه نبيل من النبلاء ، ولم يخطئنى التقدير فقد عرفت فيما بعد أنه « السير هنرى كورتيس » .

وكان الرجل الثانى بدين الجسم ، أسمر البشرة ، قصير القامة ، دلنى مظهره كما دلتنى مشيته على أنه ضابط من ضباط البحرية ، وكان هو كذلك فى نحو الثلاثين من عمره . ولقد أصبت فيه الظن أيضاً ، فالرجل من ضباط البحرية المتقاعدين ، ويدعى الرُّبان « جون جود » ، وكان حسن البزة ، حليق الذقن والشاربين ، لا يكاد يفارق « السير هنرى » كأنهما صديقان صدوقان ، أو رفيقان متلازمان فى السفر والغاية .

ولما عرفتُ ما عرفت عن هذين الرجلين اللذين استرعيا فضولى ،

أخذت أطوف فى أنحاء السّفينة أمتّع النّظر بزرقة السماء وزُرْقة ماء البحر ، إلى أن حان موعد العشاء ، فنزلت إلى حُجْرَة الطعام ، وقادنى رئيس الخدم إلى المكان المخصّص بى ، فرأيتنى أجلس إلى المائدة التى جلس إليها كلٌّ من « السير هنرى كورتيس » والرُّبّان « جون جود » . فتبادلت وإياهما التحية ، وشرعنا نتناول الطعام ونحن سكوت ، حتّى قطع الرُّبّان « جود » حبل الصمت ، فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث فى موضوعات عامّة منوّعة ويطرح علىّ الأسئلة وأنا أجيبه بما أعرف وأعلم .

ولما فتح باب الحديث عن الفيلة ، حتّى سمع صوتاً ينبعث من المائدة المجاورة ويقول له صاحبه :

— « لقد وقعتَ يا سيّدى على الضّالّة المنشودة، فليس مَنْ يفيدك عن الفيلة وصيدها مثل محدّثك الصياد الماهر "كاترمان" » !

وكان « السير هنرى كورتيس » حتّى تلك اللحظة ملتزماً الصمت ، يُرْهِفُ السّمع ولا يشاركنا فى حديث من الأحاديث ، فلما طرق مسْمَعَهُ ذكر اسمى انتفض انتفاضةً ظاهرة، وخرج عن صمته فوجّه إلىّ الكلام وقال بلهجةٍ هادئة رزينة تتّفق وما اتّسم به من هيبةٍ ووقار :

— « عذراً يا سيّدى ! أأنت "آلان كاترمان" ؟ » فقلت :

— « نعم يا سيّدى أنا هو ! »

فلم يُحِر العملاق جواباً ، وإنما رأيت لحيته تهتزّ، وشفتيه تنفرجان وتنطبقان عن تمتمة خُيّل إلىّ أنه قال فيما بينه وبين نفسه : « هذا من حسن الحظ . »

فرغنا من تناول الطعام. فنهض الركّاب كلٌّ إلى شأنه ، ودعانى « السير هنرى كورتيس » لأصحبه إلى مخدعه فقبلت الدعوة وقبلها معى الربّان « جود » . وما إن يستوى بنا المُقام فى المخدع حتى يفتتح « السير هنرى » الحديث ويقول :

— « يا سيّدى " كاترمان " ألم تكن فى مثل هذا الوقت منذ نحو سنتين فى بُقْعَة تسمى " بامنجواتو " فى شمال " الترنسفال " ؟ » .

فقلت وقد أدهشتنى معرفة الرجل بأحوالى وأمورى :

« هو ذاك يا سيّدى ! » فقال الربّان « جود » مندفعاً :

— « وكنتَ تتعاطى فيها التجارة ؟ » فقلت :

— « نعم يا سيّدى ولكننى عُدتُ منها بخسارةٍ بالغة !! »

فحملق « السير هنرى » فىّ كأنه يريد أن يستشفّ من وراء نظراته جميع أسرارى ثم قال :

— « ألم تقابل فى تلك البُقْعَة رجلا يسمى " نفيل " ؟ » فقلت :

— « أجل قابلتُه وقد بقى مُعَسْكِراً إلى جوارى مدة أسبوعين ليريح فيها دوابّه وثيرانه قبل أن يتوغّل فى مجاهل تلك البقعة . ولقد تلقَّيْتُ منذ عدة أشهر رسالةً من أحد التجار يستوضحنى فيها أمر " نفيل " هذا فوافيته بما أعرف عنه . » فقال « السير هنرى » :

— « أعلمُ ذلك فكتابك قد أرسل إلىّ ووقفتُ منه على أن " نفيل " قد توغّل فى المجاهل ، على عربة يصحبُه فيها ثلاثة رجال من أهل البلاد هم :

سائق العربة وخادم وصيّاد اسمه "جيم" ، وأنه كان ينوى بيع العربة فى آخر قرية يصل إليها ثم يستأنف السّير على قدميه إلى حيث يقصد . . . ولقد ذكرتَ كذلك فى رسالتك أن العربة قد بيعت ، لأنك رأيتَها بعد ستة أشهر ، فى حَوْزة رجل قال لك إنه اشتراها من رجل أبيض لا يذكر اسمه ، وإن البائع قد مضى يرتاد المجاهل هو وخادمه الأسود فى سبيل الصَّيد والقَنْص . » فقلت :

— « كلّ هذا صحيح ! »

— « أعتقد يا سيّد "كاترمان" أنك تجهل الدّوافع التى حَدَت بالسيد "نفيل" إلى التوغّل فى بقاع الشمال ومجاهلها ، وأنك لا تعلم شيئاً عن نتائج رحلته ولا عن مصيره ! » فقلت :

— « سمعتُ عن ذلك بعض الأقاويل . . . » فقال :

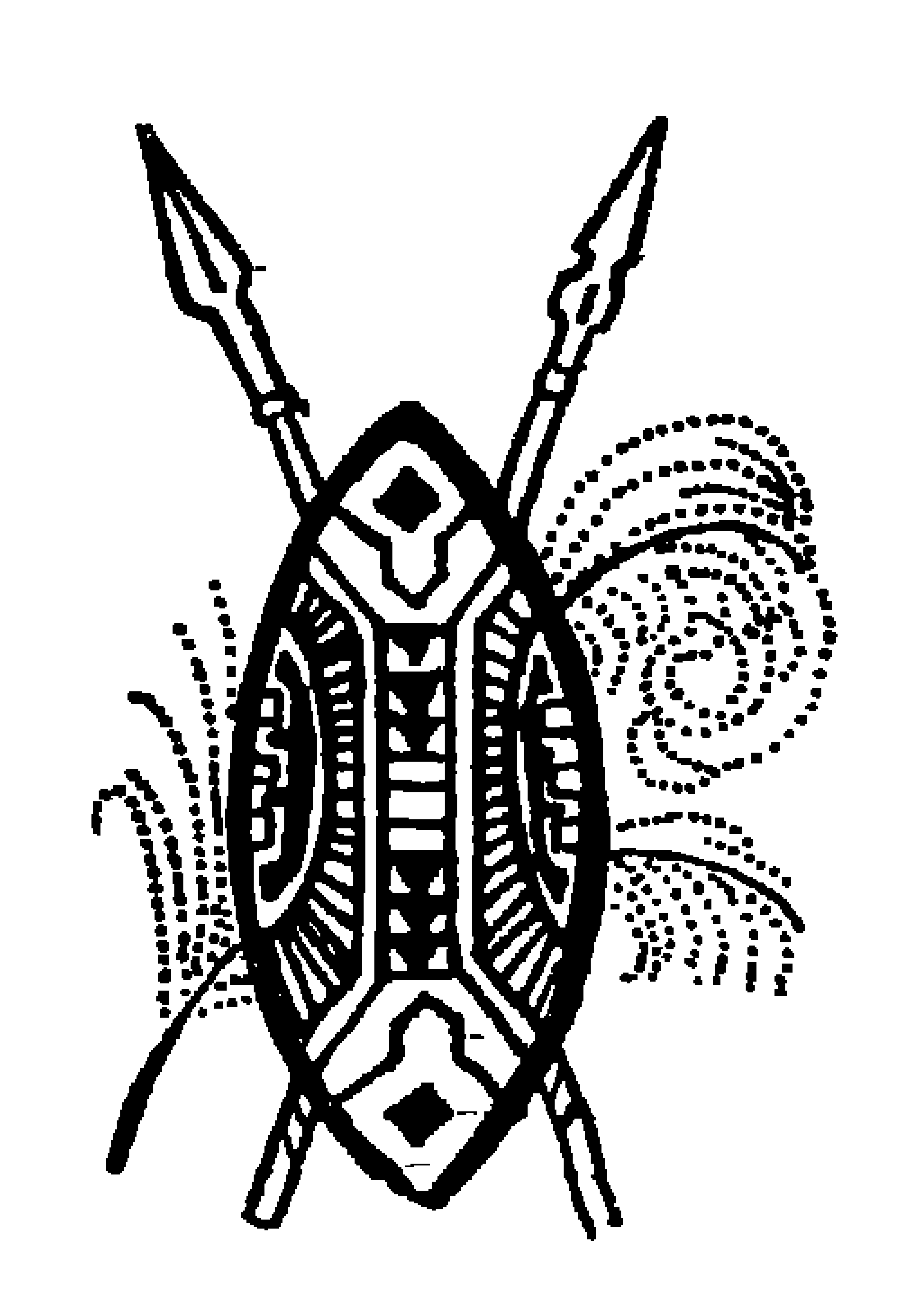
— « إن "نفيل" هذا يا سيّدى هو شقيقى ! »

فراعتنى هذه المفاجأة ، غير أن « السير هنرى » استمر يقول :

— « ليس لى فى الحياة غيرُ هذا الشقيق الذى يصغُرنى ، وكنا شقيقين متحابّين لا نفترق أبداً ، فحدث منذ سنوات خمس أن اختلفنا على أمر من الأمور ، فأعمانى الغضبُ وأغلظت له فى القول ، فخرج ثائراً مُحْنَقاً . ثم علمت أنه أخذ ما كان لديه من مال قليل ، وأبحر إلى جَنوب أفريقيا على أمل أن يصيب فيها الغنى والثّراء ، وتسمى باسم "نفيل" ، وانقطعت عنا أخباره فلم يردّ على رسالةٍ واحدة من الرسائل الكثيرة التى كتبتُها إليه ،

ولعله لم يتسلم شيئاً منها . ولقد ذهب بحثى عنه أدراج الرّياح ، وكانت رسالتك يا سيّدى بعض نتائج ذلك البحث ، ولا أكتمك أنها جلَبَت لى بصيصاً من الأمل ، وإنى لأتنزل عن ثروتى الكبيرة طائعاً مختاراً فى سبيل الظفر بشقيقى "جورج" حيًّا يرزق ، والعودة به إلى منزل أسرته سالماً مُعافى ، وها أنا ذا جئت أبحث عنه ، فلن أتوانى عن ركوب كلّ خطر ، وعن بَذْل كلّ تضحية فى هذه المهمّة التى تفضّل صديقى "جود" فصحبَنى فيها. » فهزّ « جود » رأسه مؤمّناً على كلام السير هنرى وقال:

— « ولم أتكلّف فى ذلك أمراً عسيراً، فأنا بحّار متقاعد لاشغلَ لى ولا عمل . . . وها أنت ذا يا سيد "كاترمان" على علم بحالنا وغايتنا فأطلِعْنا على ما تعرف من أمر هذا الذى تسمى باسم "نقيل". »





٢

رآنى « السير هنرى » متردِّداً فى الإجابة عن سؤال الرُّبَّان « جود » فكرّر السؤال ، وما كنت وأيْمُ الحق متردّداً فى الجواب إلا ريثما أفْرَغُ من حشو غليونى بالتَّبْغ فقلت :

— « إن الذى بلغنى عن شقيقك يا سيدى هو أنه أراد أن يعثر على كنوز الملك سليمان ! »

فانتفض « السير هنرى » والرُّبَّان معاً وقالا بصوت واحد :

— « كنوز الملك سليمان ؟ ! وأين هى ؟ ! » فقلت :

— « لست أدرى ولكننى أعرف المكان الذى يُزْعَمُ أنها مخبوءةٌ فيه ... بل رأيت مرة قِمَمَ الجبال التى قيل إن تلك الكنوز مدفونة وراءها . .

رأيتها على بعد مئة وثلاثين ميلا، وكانت تفصلنى عن تلك القمم صحراءُ واسعة ، ما اجتازها قطُّ رجلٌ أبيضُ اللهم إلا واحداً فقط ، فإن شئتما حدَّثتكما بما أعرف عن أسطورة كنوز سليمان كما رُوِيَت لى، ولكنّ لى عليكما شرطاً واحداً وهو أن لا تَنْبِسَا بكلمةٍ مما تسمعان إلا بإذنى ، فهناك أسباب وجيهة تحملنى على هذا الاحتراس ، فهل توافقان ؟ »

فهزّ « السير هنرى » رأسه دلالة على الموافقة ، وأعقبه الرُّبَّان قائلا :

— « نعم نوافق . . . نعم نوافق . . . » فقلت :

— « عرفت منذ حوالى ثلاثين سنةً ، رجلا أبيضَ يدعى "إيفنس" وكان هو أيضاً مُغْرَماً بصيد الفِيَلة مثلى . كنا فى الجهة الشمالية الغربية من "الترنسفال" ، فجلسنا ذات ليلة نتحدّث ، فأخبرنى أنه فى أثناء توغّله فى المجاهل والصحارى عثر على قِطَعٍ ضخمةٍ من الحجارة ، وعلى بداية طريق تغطيه الرمال، فأيقن أنها بقايا مدينة قديمة تتّصل بتلك الجبال التى تُرى فى نهاية تلك الصحراء الممتدة الأطراف ، وكنتُ أنا فى ذلك العهد فتًى حديث السنّ ، فضحكت من هذا الذى أثار اهتمام محدّثى فقال لى : — "لا تضحك يا فتى إن تحت تلك الحجارة حضارةً عريقة فى القِدَم" فأمسكتُ عن الضَّحِك ولكننى فى قرارة نفسى حكمتُ على الرجل بالعَتَه والخبول حتى سمعته يقول لى :— "ووراء تلك الجبال كنوز سليمان ، أما سمعتَ قطّ بكنوز سليمان ، وما كان يملكُ من مناجم الذهب واللؤلؤ والألماس ؟" فقلت له : — "كلا ! ولكن كيف عرفت

ذلك ؟" فقال : — "عرفته من ساحرة قابلتها فى قرية قريبة من مدخل تلك المدينة ، فأخبرتنى أن السكان وراء تلك الجبال ينحدرون من قبائل "الزواو" ، ويتكلمون بلغة شبيهة بلغتهم ، وأنهم رجال أشداء يتعاطى فريق منهم السحر وقد توارثوه كابراً عن كابر ، وأخذوه عن الرجال البيض الذين وصلوا إليهم فى العهود السحيقة ، فسحرتهم هؤلاء يعرفون طريق منجم من الحجارة البراقة . . . " اهتممتُ بعضَ الاهتمام بحديث صاحبى ثم افترقنا فنسيته ، ولا سيما أن صاحبى هذا قد قتل بعد أيام معدودات ، قتله ثور جريح أغمد قرنَيْه فى أحشائه . . . »

سكتُّ هنيهة لأستجمع شوارد خواطرى ثم استأنفت الحديث قائلا :

— « بعد هذا الحادث بعشرين عاماً . . . أجل بعشرين عاماً . . . عرفت رجلا آخر حدثنى هو أيضاً عن كنوز الملك سليمان ، بعد إذ كان النسيان قد طوى أمرها من ذاكرتى . . . »

« فقد كنت ذات مساء أتناول عشائى فى جهة نائية من جهات "الترنسفال" قريبة من تلك الصحراء التى حدثنى عنها "إيفنس" ، المسكين ، فمرَّ بى رجلٌ من أهل "البرتغال" يتبعه خادم أسود فاستضفته تلك الليلة وكان اسمه "جوزى سلفستر" ، فلما انبثق الفجر ودعنى وانصرف هو وتابعه وقال لى : "إذا التقينا مرة أخرى يا سيد "كاترمان" فسأكون أغنى رجل فى العالم ولن أنساك !" ثم رأيته قد سار فى شعاب تلك الصحراء ، فأيقنتُ أن الرجل مجنون من المجانين . . . وفى أصيل

اليوم الثامن من رحيل الرجل ، جلست على باب خيمتى أمتّع الطرْف بجمال مغرِب الشمس، فلمحت عن بُعْدٍ رجلا يمشى على قدميه ويديه وكأنه يزْحف ، ثم ينهض قليلاً فيقع ، فأدركت أنه فى حاجة إلى المعونة ، فأهبْتُ بأحد رجالى ، وطلبت إليه أن يخفَّ إلى مساعدة ذلك الغريب ، فجاءنى بعد قليلٍ متوكئاً على ذراع تابعى . أفتدريان من كان ؟ » فقال الرُّبّان « جود » :

– « "جوزى سلفستر" وحق السماء ! » فقلت :

– « أجل "جوزى سلفستر" بل خيال "جوزى سلفستر" فقد كانت الحمّى الصفراء قد عبثت بجسمه كلّ العبث ،ودبَغَتْه باللون الأصفر الفاقع ، ونهشت لحمه حتّى أصبح هيكلا من العظام تجمعه جلدة صفراء . . . فما كاد يرانى حتّى صاح بصوت خافت ضعيف :

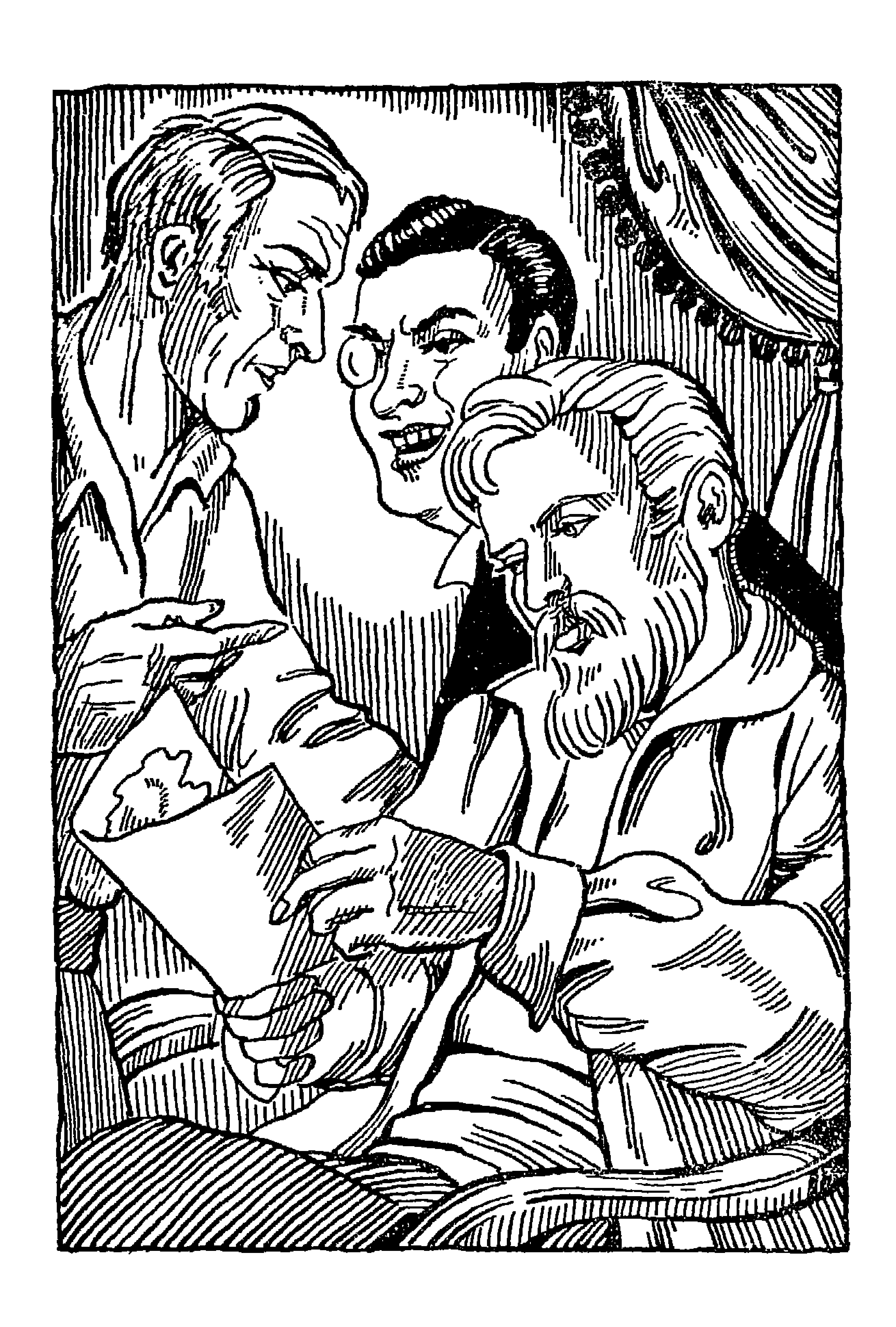
– "جرْعَة ماء . . . جرعة ماء . . ." فأتيته بالماء ممزوجاً باللبن ،وعندما اقتربت منه رأيت شفتيه مشقّقتين ، يمتدُّ منهما لسان أسود متورّم ، فسقيته حتّى ارتوى ، ثم أدخلته إلى الخيمة وبذلت له ما استطعت من عوْن فما نجع فيه دواء ، فقد كان فريسة الحمى فأخذ يهذى ويتلفّظ بكلماتٍ متقطّعة من مثل : جبال سليمان . . . الألماس . . . الصحراء . . . وفى نحوٍ منتصف الليل استولى عليه سُبَاتٌ عميق ، فتركته وذهبت آخذ قِسْطى من النوم والراحة . . . وعندما استيقظت فى الفجر رأيته قد جمع هيكله المتحطّم ، واستدار إلى ناحية الصحراء . ولما طلعت الشمس

وغمرت بأشعتها قمة الجبل العالى من تلك الجبال القائمة فى نهاية القفر ، مد ذراعه الناحلة صوب تلك القمة وصاح وهو يضطرب : — "هذا هو .. هذا هو ... هيهات أن أبلغه أو أن يبلغه مخلوق من البشر ! ! " وكأنى به بعد كلامه هذا قد عزم على أمر من الأمور ، فالتفت إلى وقال : — "أأنت هنا يا صديقى ؟" فقلت له : — "نعم أنا هنا ! ولكن ناشدتك الله إلا استلقيت ، إلى فراشك واسترحت !" فقال : — "سأستريح عما قريب حينما أنتقل من هذه الدنيا إلى الأخرى فهناك الراحة الأبدية . أما الآن فأرجو أن تنصت إلى ، فلم يبق لى فى هذه الحياة إلا القليل ... لقد كنت عطوفاً على شفيقاً بى . . . لذلك قررت أن أعطيك الورقة فلعلك تستطيع أنت أن تجتاز الصحراء التى قتلت تابعى وقتلتنى أنا . . . " ومد يده بعد هذه الكلمات إلى صدره ، وأخرج منه محفظة صغيرة من الجلد ففتحها ، ثم ضعفت أصابعه عن تناول ما تحتوى ، فاستعان بى على ذلك فأطعته وأخرجت من المحفظة قطعة قماش مصفرة ، وعليها كتابة كاد الزمن يمحو سطورها ، وكانت مطوية على ورقة حافلة هى أيضاً بالكتابة . فقال لى عندئذ بصوت متقطع يزداد خفوتاً : — "كل ما على قطعة القماش هذه من كتابة ، نقلته إلى هذه الورقة . . . لقد بذلت فى فك رموزها سنوات عدة . . . فاسمع وع ما أقول : إن هذه الوثيقة كتبها أحد أجدادى وكان لاجئاً سياسياً قدم من "لشبونة" فهو من الكوكبة الأولى التى نزلت بهذه البلاد . . . كتبها وهو يجود بأنفاسه

فوق أحد تلك الجبال التي ما وطئتها قدم رجل أبيض من بعده . . . كان ذلك منذ نحو ثلاثة قرون ، وكان اسمه "جوزى دا سلفسترا" وكان تابعه ينتظره فى سفح الجبل الذى يُرى من هنا ، فلما تأخر عليه أدركه ورآه قد لفظ الروح ، فنقل الوثيقة إلى أسرته فى "لشبونة" . . . وبقيت هذه الوثيقة فى أسرتنا ، ولم يفكر أحد قبلى فى قراءتها وفك رموزها . . . وقد ينجح غيرى فيما أخفقتُ فيه ، ويصبح أغنى رجل فى العالم . . . أغنى رجل فى العالم . . . ولكن حذار أن تعطى هذه الوثيقة أحداً من الناس ، بل اذهب أنت نفسك إلى الكنز واستولِ عليه . . ." وثقلتْ عليه وطأة الحمّى بعد ذلك فأخذ يهذى ويهرف حتى فاضت روحه ورجعت إلى بارئها ، فواريته فى التراب ، وأثقلت قبره بالحجارة حتى لا تنبشه الثعالب وبناتُ آوى ، ثم طويت خيامى ورحلت عن تلك البقعة النائية . . . » فقال « السير هنرى » عندما فرغتُ من روايتى وقد بدت عليه أمارات الجد واهتمام :

— « والوثيقة ؟ » فقلت :

— « إذا كان يسركما أن تعرفا أمرها فإنى محدثكما به . . . فاعلما أولاً أنى ما أطلعتُ عليها أحداً غير زوجتى ، وقد توفاها الله فهى الآن فى عالم الأموات ، على أنها لم تجد للوثيقة أىّ معنًى من المعانى . كذلك أطلعت عليها رجلاً برتغالياً عجوزاً كان يترنح من السكر ، فعلت ذلك طمعاً فى أن يترجمها لى ، وكنت على يقين من أنه سينسى كل حرف فيها



إذا ما طلع النهار . . . فالأصل والترجمة موجودان عندى فى مدينة "دربان" على أننى أحمل معى نسخة بالنص الإنجليزى ، وكذلك نسخة من الخريطة إذا كانت تلك الخطوط المبعثرة جديرة بأن تسمى خريطة ... »

وعلى الفور أخرجت من محفظتى صورة الوثيقة وأخذت أتلوها بصوت عالٍ وهذا نصها :

« أنا "جوزى دا سلفسترا" ، الذى تتساقط نفسى قطعةً قطعةً من الجوع والعطش ، فى الكهف الذى لا ثلج فيه والقائم إلى الجهة الشمالية من القمة المنحدرة إلى الجنوب من الجبلين اللذين سميتهما "الشقيقين" ، أكتب هذا فى سنة ١٥٩٠ على قميص من ملابسى ، متخذاً من قطعة عظمٍ مبريّة قلماً ، ومن دمى مداداً . فإذا وجد تابعى هذا الذى أكتبه ونقله إلى "لشبونة" فليقُمْ صديقى (هنا اسم لا يقرأ) بإطلاع الملك عليه ، فإذا رضى الملك بأن يرسل إلى حيث أشير جيشاً يجتاز الصحراء والجبال ، وينتصر على قبائل "الكوكوانا" وحيلهم الشيطانية (ويحتاج ذلك إلى معونة نفرٍ من القسيسين) يصبح أغنى ملك وُجد على وجه الأرض بعد سليمان . وإنى أقرر وأؤكد أنى رأيت بعينىّ آكاماً من الألماس، مكدسة فى غرفة كنوز سليمان وراء الموات الأبيض ، ولكن "جاجول" المنقبة عن السحرة خانتنى فلم أستطع الظفر بألماسةٍ واحدة ، وكدت أموت فى تلك الغرفة . فمن يجئ إلى هنا بعدى ، فعليه أن يتبع الأدلة المذكورة فى الخريطة ، وأن يجتاز الثلوج التى تغطى الشقيق الأيسر حتى يبلغ

القمة ، ومن هناك فلينحدر إلى الطريق الذى بناه سليمان ، فبعد مسيرة ثلاثة أيام سيصل إلى قصر الملك ، فليقتل "جاجول" وليترحم على ... الوداع !
جوزى دا سلفسترا »

انتهيت من القراءة ، وعرضت على محدثىَّ الخريطة التى خطها "جوزى" الأكبر بدمه وهو يلفظ أنفاسه ؛ فذهب الرجلان فريسة الدهش والاستغراب ، فما نطقا بحرف إلى أن قال « السير هنرى » :

– «عذراً يا سيد "كاترمان" فما أنا من يظن بك سوءاً ، ولكن ألا ترى معى أن قصتك هى من الغرابة بحيث يصعب تصديقها ؟!» فقلت:

– « سأريكما أصل الوثيقة والخريطة حالما نصل إلى "دربان" . . . أما شقيقك يا سيدى "هنرى" فلم أحدثك بعد عنه ... فقد كنت أعرف تابعه المسمى "جيم" فهو صياد ماهر من سكان هذه البلاد ، فضلاً عن أنه فتى جم الذكاء ... ففى صباح اليوم الذى عزم فيه "نفيل" على الرحيل ، رأيته قريباً من عربتى يفرك بين راحتيه بعض التبغ فقلت له : – "إلى أين يا جيم هذه المرة أ إلى صيد الفيلة ؟" فقال : – "كلا ! إننا ذاهبان إلى حيث نجىء بشىء أثمن من العاج" فقلت وقد أثار فى الفضول : – "وما ذاك ؟ أهو الذهب؟ !" فقال : – "شىء أثمن من الذهب ! ". فاكتفيت بما سمعت ، ولم أشأ أن أظهر فى عينيه بمظهر المتطفل ، فتركته وذهبت إلى شأنى ، فرأيته قد لحق بى بعد دقائق وقال لى : – "سيدى . . . سيدى . . . "فتجاهلت النداء والمنادى ، فرأيته قد انحنى

عليّ وقال : — "إننا ذاهبان إلى حيث نملأ جيوبنا وحقائبنا بالألماس !" فقلت له : — "ولكنكما تتّجهان وجهة خاطئة ، فعليكما أن تسلكا طريق المناجم . . . " فقال : — " ألم تسمع يا سيّدى بجبال سليمان ؟ !" فقلت : — "بلى سمعت بها إنها خُرافة . . ." فقال : — "كلا ليست خُرافة . . . حدّثتنى بذلك عجوزٌ أتت من هناك . . . لقد ماتت . . ." فقاطعته قائلا : — "ستكون أنت وسيّدك فريسةً للصقور إذا جازفتما فى الذّهاب إلى جبال سليمان . . ." فقال ضاحكاً : — "يموت الإنسان مرةً واحدة فى الحياة ، فلا أقل من أن يجرّب حظّه فى الحصول على الثراء العريض !" وتركنى مشدوهاً من فلسفته وانصرف راكضاً . . . وبعد نصف ساعة عاد إلىّ وقال : — " لم أشأ أن أرحل من غير أن أودّعك ، فسيّدى مصمّم على الذّهاب إلى جبال سليمان ، ويخيّل إلىّ أننا لن نعود ..." فقلت له : —" اسمع يا جيم ! . . . كثيراً ما اعتمدت عليك فكنت الرجل الأمين . . . سأعطيك ورقة تسلمها إلى سيّدك عندما تصبحان على بعد مئة ميل من هنا أفهمت ؟" فقال : — "نعم فهمت !" فأخذت ورقة وكتبت عليها "فمن يجىء إلى هنا فعليه أن يجتاز الثلوج التى تغطى الشقيق الأيسر حتى يبلغ القمة ومن هناك فلينحدر إلى الطريق الذى بناه سليمان" ثم سلمت جيم الورقة فأخذها وطار إلى عربة "نقيل" التى بدأت تتحرك ، وكان غرضى من أن لا يتسلم "نقيل" الورقة إلا بعد أن يجتاز نحو مئة ميل ، هو الحيلولة دون

مجيئه إليّ وطَرْحه عليّ أسئلة لا أحبُّ أن أجيب عنها . . . هذا كل ما أعرفه عن شقيقك يا "سير هنرى" . . . وأخشى أن . . . »

فقاطعنى « السير هنرى » قائلا :

ـ « شكراً لك يا عزيزى "كاترمان" إننى أنوى القيام بالبحث عن شقيق ، وإنى على استعداد للذّهاب حتى إلى جبال سليمان ، واجتيازها إذا قضت الحال ، إلى أن أعثر عليه أو أوقن أنه مات ، فهل ترضى أن تصحبنى ؟ » فقلت :

ـ « كلا يا سيّدى فقد بلغت من العمر سنّاً لا تسمح لى بركوب المخاطر ، فضلاً عن أن لى ولداً هو فى حاجة إلى عونى وإشرافى ، فحياتى ليست ملكاً لى . »

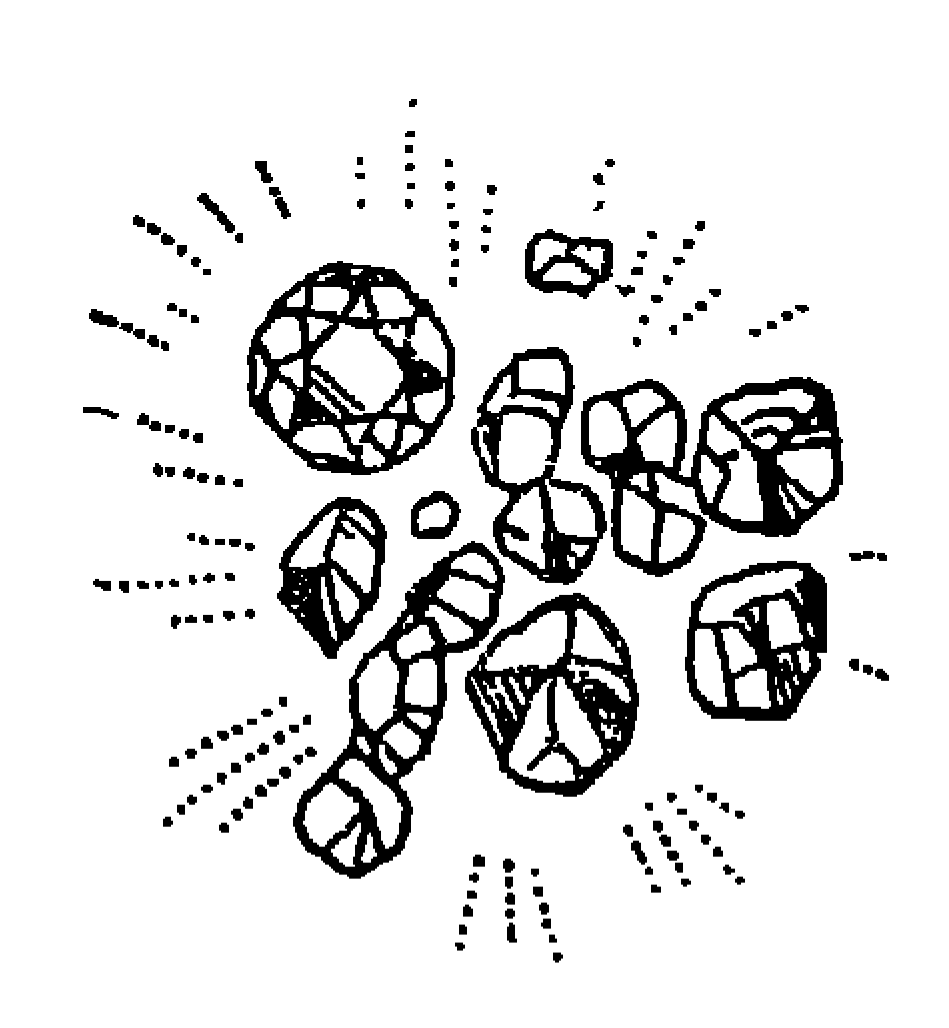
فاستولى على «السير هنرى » وعلى الرُّبّان «جود » الذهول والأسف فقال الأول :

ـ « يا سيد "كاترمان" ليس ثمة شىء يُقصينى عن هدفى أو يثنينى عمّا عزمت عليه ، وإنى بحمد الله صاحب ثروة ضخمة ، فقدّر أنت لخدماتك ثمناً أدفعه إليك بالغاً ما بلغ قبل أن نخطوَ معاً خطوةً واحدة فى البحث عن شقيقى ، هذا ولسوف أتّخذ جميع التدابير ، إذا ما أصِبْتَ أنت أو أصِبْنا نحن جميعاً بمكروه . فى أن أضمن لابنك حياة رغيدة ، فلعلك تدرك من هذا كله أنى أعلّق على معونتك آمالا واسعة . أمّا إذا انتهت حَمْلتنا بخير وسلام ونجاح ، وظفِرْنا بكنوز سليمان ، فلك منها

النصف وللرُّبّان "جود" النصف الآخر ، ولست أبغى لنفسى منها شيئاً . فهات شروطك يا سيد "كاترمان" فقات :

— «إن عَرْضَكَ سخىٌّ كريم يا سيّدى ، وهو جدير أن يُغْرِىَ صياداً فقيراً مثلى ، على أن الرّحلة محفوفةٌ بالمكاره ، فلابدّ لى من التفكير قبل أن أقطع فيها بأمر ، وسأوافيك بقرارى قبل أن نصل إلى "دربان" . »

ثم تبادلنا تحيّة المساء وافترقنا ، فذهبت إلى سريرى واستلقيت إليه ، وقضيت الليل وأنا أحلم بالمسكين "سلفسترا" الكبير الذى مات منذ نحو ثلاثة قرون ، ثم مات حفيد له منذ نحو عشرين عاماً ، فريسة كنوز الملك سليمان . . .





٣

قضيتُ الأيام التالية فى صُحبة رفيقىّ نتحدث معاً فى كل شىء إلا فيما عرضه علىّ « السير هنرى » ، وكنت لا أفتأ أقصّ عليهما قصص الصيد والصيّادين إلى أن وصلت بنا السفينة ذات مساء إلى ميناء « دربان » ، وكنت أنا على سطح السّفينة قريباً من الدّفّة فرأيت « السير هنرى » والرُّبّان « جود » مقبلَيْن علىّ ، فلما وصلا إلىّ بادرنى أولهما قائلا :

— « هل فكّرتَ فيما عرضتُه عليك يا سيّد "كاترمان" ؟ »

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد اتخذتُ أىّ قرار أطالعهما به ، فانحنيتُ فوق حاجز السفينة لأفرِغ فى مياه البحر محتوى غليونى ، فكفتنى تلك الثانية مؤونةَ التردّد فاستدَرْتُ نحوهما وقلت :

— « نعم يا سيّدَيّ إني ذاهبٌ معكما وهذه شروطي :

أولا : تكون جميع نفقات الرحلة على نفقة "السير هنري" فإذا اتّفق أن ظفِرْنا في أثناء الرحلة بشيء من العاج فإنه يُقْسم بيني وبين الرُّبّان "جود" مناصفة .

ثانياً : يُدْفع لي قبل الرحيل خمسمائة جنيه إسترليني لقاء أتعابي ، على أن أخدمكما بكلّ إخلاص حتّى تعدلا عن الرحلة ، أو ننجح فيها ، أو نكون فريسة كارثة من الكوارث .

ثالثاً : يتكفّل "السير هنري" ، إذا ما متُّ أو أصبتُ بجراح خطيرة في أثناء الرحلة ، بأن يدفع لولدي "هاري" المقيم بلندن مبلغ مائتي جنيه إسترليني في العام وذلك لمدة خمس سنوات .

هذه شروطي ولا إخالني مبالغاً فيها . . . » فقال « السير هنري » :

— « كلا وإني لراض بها ! . . . » فقلت :

— « إذن اتّفقنا ... أما الأسباب التي دفعتني إلى أن أصحَبَكما فهي هذه : لقد راقبتُكما في هذه الأيام مراقبةً دقيقةً ، واعذراني على وقاحتي ، فَرُقْتما في عيني وبدا لي أننا سنكون على وفاق .

وأمّا الرّحلة نفسها فلا أكتمكما أننا لن نعود منها سالمين إذا ما عنّ لنا أن نجتاز جبال سليمان . . . فماذا كان مصير "سلفِسترا" الكبير ؟ ومصير أحد أحفاده ؟ ومصير شقيقك يا سيّدي "هنري" فنفسي تحدّثني أننا لن نختلف عنهم مصيراً . . . »

وسكتُّ لحظةً لأرى أثر كلامى فى سامعَىَّ فلاح لى الرُّبّان « جود » منزعجاً فى حين لم ترتسم على وجه « السير هنرى » أيّة علامة من علامات الخوف والقلق فاستأنفت الحديث وقلت :

— « ولعلكما تتساءلان لماذا قبلت أن أصْحَبَكما وأنا على مثل هذا الاعتقاد واليقين . . . هناك سببان : أولهما أنى أعتقد بالقضاء والقدر ، فإذا كان محتوماً علىّ أن أموت فوق جبال سليمان . فسوف أموت فوقها ولن يعصمَنى منها حامٍ ولا عاصمٌ . وثانيهما أنى رجل فقير ؛ قضيت نحو أربعين سنةً فى الصيد والقنص والتجارة . ولم أستطع أن أجمع لى ثروة تقينى شرّ العَوَز فى شيخوختى . فإذا متّ فى هذه الأيام ذهب ما ادّخرت من مال إلى الدائنين ، وبقىَ ابنى فقيراً مُعدِماً لا سندَ له فى الحياة ولا نصير يُعينه على استكمال دراسته . . . من أجل ذلك كله رأيت أن أقبل ما عرضتَه علىّ ياسيّدى "هنرى". » فقال « السير هنرى » :

— « إن الأسباب التى ذكرتَها يا سيّدى "كاترمان" تشرّفك وتُعْلى من قدرك ، والحوادث هى التى ستفصل فى حَدْسك وتخمينك ، وكيفما كان الأمر فإنى مصمّم على السير فيما عزمت عليه حتى النهاية ، فإذا قُدّر لنا أن نهلك فسوف نبيع حياتنا بأغلى الأثمان أليس كذلك يا "جود"؟ »

فقال « جود » :

— « إنه لكذلك فقد تعوّدنا نحن الثلاثة أن نُجابه الأخطار فلا معنى أن نتقهقر عنها فى هذه المرّة . . . فماذا لو نزلنا إلى حجرة الاستقبال

وشربنا نخب نجاحنا المنشود !!! »

فأجبناه إلى ما طلب ، ثم غادرنا السفينة وافترقنا على أن نلتقى فى صباح اليوم التالى ، فذهبت إلى منزلى فى المدينة وقضيت الجانب الأكبر من الليل فى جمع حاجاتى ، وترتيب أوراقى ، وكتابة وصيتى ، ثم غرقت فى نوم عميق نهضت منه فى الصباح إلى لقاء رفيقَىَّ ، فكان أول عمل قام به « السير هنرى » أن نفّذ لى الشروط التى اشترطتها بحذافيرها : فنقدنى المال الذى رغبت ، وكتب على نفسه الصك الذى طلبت ، ثم انصرفت أعِد مُعَدَّات الرحلة ، فاشتريت لحساب « السير هنرى » عربةً جيّدة ، وثيراناً قويّة ، وساعدنى « جود » فى شراء ما يلزم من الأطعمة والأغذية ولا سيما الأدوية وأدوات الجراحة فقد كان فيها خبيراً أىّ خبير ، لأنه كان قد درس الطب فى شبابه دون أن يظفر بالشهادة . ولقد دلّ فيما بعد على أنه فى معالجة الأدواء وتضميد الجراح ، أبرعُ من أكثر الأطباء حَمَلَة الشهادات . فلما أتممنا هذه المعدّات اهتممنا نحن الثلاثة بشراء الأسلحة والذخيرة ، وفرغْنا منها على النحو الذى نريد ، ثم أخذنا نبحث عمن يرافقنا من خدم .

قرّرنا أن يكون معنا خمسة رجال : السائق ومساعده ثم ثلاثة من الخدم ، ولم يطل بنا البحث فى اختيار السائق ومساعده ، فقد وفّقنا سريعاً إلى رجلين من الزولو يدعى أحدهما « جوزا » والثانى « توم » أمّا الخدم فمشكلتهم كانت أعوص ، فلا بدّ من التدقيق فى اختيارهم ،



ولا بدّ أن تتوافر فيهم صفة الشجاعة والأمانة . وأخيراً وقع اختيارنا على اثنين بدا لنا أنهما يجمعان الصفات المطلوبة . كان أكبرهما يدعى « عصفور الهواء » وأصغرهما يدعى « كيڤا » وكان يجيد التحدث باللغة الإنجليزية . بقى علىّ أن أوفّق إلى العثور على الخادم الثالث ، ولكن ذهب بحثى سدًى حتى قرّرنا أن نبدأ الرحلة ، فلعلنا فى أثناء الطريق نتمكّن من العثور على ضالّتنا .

ضربنا لرحيلنا موعداً معيّناً وأخذنا نستعدّ له ، و عشيّة اليوم السابق دخل علىّ « كيڤا » يخبرنى أن بالباب رجلا يريد أن يقابلنى ، فخرجت إليه فوجدتنى إزاء رجل طويل القامة . عريض الصدر ، قوىّ الأجلاد ، جميل الصورة ، يناهز الثلاثين من العمر . وكان لون بَشَرَته ضارباً إلى السّمرة وهو أمر نادر فى قبائل الزولو :

ووجدته يزين رأسه بالحَلْقة السوداء ، وهى حلْقة تُصْنع من الصّمْغ المذوّب بالشحم ، وتُعْقَد فوق الرأس مضفورة بالشعر ، ويستعملها المتقدّمون فى السنّ من رجال الزولو أو المتقدمون فى المرتبة والمَقام . فسألته :

— « ما اسمك ؟ » فقال بلهجة هادئة خطيرة :

— « "أمبوپا" » فقلت :

— « وماذا تريد ؟ » فقال :

— « بلغنى أنك ذاهب فى حملة كبيرة إلى الشمال مع رجلين من البيض جاءا من وراء البحار فهل هذا صحيح ؟ » فقلت :

ــ « كلّ الصحة . . . » فقال :

ــ « وأنكم ستجتازون الصحراء القاحلة القاتلة . . . »فقاطعته قائلاً :

ــ « وما شأنك أنت ؟ ! »

وخشيت أن يكون سرّ رحيلنا قد ذاع وشاع . في حين أننا لم نُفْصح عنه لأحد ، فقطع عليّ تفكيري قول الرجل :

ــ « أيها الرجال البيض ! إذا كانت هذه نيّتكم فإني أرجو أن أذهب معكم ! » فقلت له :

ــ « ومن تكون ؟ ومن أيّ قبيلة أنت ؟ » فقال :

ــ « أنتسب إلى قبائل الزولو ولكنني لست منهم ، فقبيلتي تقطن في جهة نائية من جهات الشمال ، بقيتْ هناك عندما انحدر الزولو إلى هنا منذ حوالي ألف عام . . . هجرت قبيلتي وأنا طفل ، وضربت في الصحاري والغابات سنوات كثيرة قبل أن أصل إلى أرض الزولو ، فلما وصلت إليها هربت منها وجئت إلى "الترنسفال" لأرى كيف يعمل الرجال البيض ، فألَبّتُ الرجال على قائدهم . ولقد تعبت من هذه الحياة، ومن العمل في هذه البلاد ، وإني أرغب أن أتجه إلى الشمال فخذوني معكم ولست أطلب على خدمتي أجراً ، وسوف ترون أني رجل شجاع أستحق اللقمة التي أطعمها والمكان الذي أنام فيه . . . هذا كلامي . . . »

وخرج في هذه اللحظة «السير هنري» والرُّبّان «جود» فحدّثتهما بحديث الرجل ، فاقترب «السير هنري» من الرجل وأخذ يتأمله ويُسَرِّح النظر في

ذلك الهيكل الذى تَـطفِرُ منهالقوّة والبأس، فأسرّ إلىّ « جود » قائلا :

— « إنهما بطلان متكافئان فلمن ترى الغلبة لو التحما جسماً إلى جسم ! ! . . . »

وارتفع صوت « السير هنرى » فى تلك الثانية وهو يقول باللغة الإنجليزية :

— « إنك تعجبنى أيها الرجل ، وإنى أقبلك فى خدمتى . . . »

ففهم « أمبوپا » كلامه وأجاب بلغة الزولو :

— « حسن . . . »

وأخذ يُـجيل طَرْفه فى ذلك العملاق الأبيض الواقف إزاءه ثم قال :

— « كمثلى ومثلك يكون الرجال ! »





٤

غادرنا «دربان» فى نهاية شهر يناير، وبقينا نطوف القُرَى والدّساكر ونجتاز الأدغال والغابات حتّى الأسبوع الثانى من شهر مايو متّجهين دائماً إلى الشمال الغربىّ من بلاد «الترنسفال».

اضْطُرِرنا بعد مسير ثلاثة أشهر إلى أن نهجُر العربة التى كانت تُقِلُّنا، فقد وصلنا إلى بُقْعَة يكثر فيها صنفٌ من الذّباب يسمّى «تسى تسى»، وهذا الذّباب شديدُ الفتك بالحيوان إلا بالحمير، فقبل أن نسلك شِعاب تلك البُقعَة، نزلنا من العربة وتركناها هى والثيران فى حراسة السائق ومساعده، وأوصيناهما بانتظارنا حتّى نعود.

وسرنا على الأقدام إلى غايتنا يحرُسنا «أمبوپا» و «كيڤا» و «عصفور

الهواء » وستة من الحمّالين اخترناهم من القرية التى تركنا فيها العربة .
واتّفق أن مررنا ذات مساء بروضةٍ جميلةٍ ، مكسوّة بالأعشاب والأشجار ، قامت فى وسطها هَضْبة خضراء ، وترقرقت عند سَفْحها جداول من الماء الصافى رأينا على حافاتها آثار حوافر الحيوان ، فنصبنا خيامنا فى تلك الروضة ، وجلسنا نتناول عشاءنا فى ضوء القمر . وفجأة سمعنا من وراء الأشجار المتشابكة دويّاً عظيماً « ووف . . . ووف » . . . فقلت :
— « هذا زئير أسد . . . »
فأرهفنا جميعاً آذاننا لنتبيّن الصوت ، فمزّق السّكون فى هذه المرة صوتٌ ينبعث من جهة جداول الماء فصاح الرجال جميعاً :
— « فيل . . . فيل . . . »
فرأينا بعد دقائق قليلة جماعةً من الفيلة تمرّ بجداول الماء وتتّجه نحو الغابة ، فخفّ « جود » إلى بندقيّته يريد أن يسدّدها إلى فيل من تلك الفيلة فمنعته قائلا :
— « إننا سنستأنف السّير فى الفجر ، فلنأخذ الآن قسطنا من الراحة ، ولن نعدم وسيلة غداً فى تعقب هذا الرّعيل إذا شئنا . . . »
فأقرّنى « السير هنرى » على رأيى وهو يتحرّق شوقاً إلى الصيد والقَنْص . ونهضنا فى الصباح واتّفقنا على أن نصطاد ولو فيلا واحداً قبل أن نجدّ فى السير ، فأخذنا بنادقنا وكميّة وافرةً من الذخيرة والأطعمة والشراب ، وصحبنا « أمبوبا » و « كيفا » و « عصفور الهواء » ، ومضينا

نتعقّب آثار الفيلة حتى اقتربنا منها بعد مسير ساعتين : فإذا هي جماعة لا تقلّ عن عشرين فيلاً قد تجمّعت في بطن الوادي ، ثم رأيناها تتفرّق يميناً وشمالاً . وتابعنا نحن السير إليها في رِفْق وحَذَر حتى كدنا نقترب من ثلاثة منها ، فقلت لزميليّ : إني أختار الفيل الأوسط ، وقال « السير هنري » إنه يختار الفيل الواقف إلى اليسار ، وبقيَ الفيل الواقف إلى اليمين من نصيب « جود » فصوبنا جميعاً بنادقنا ثم صحت :

— « أطلقوا النار » .

فدوّت في الحال ثلاث طلقات « بم . . . بم . . . بم . . . » وقع بعدها فيل « السير هنري » فقد كان أصابه في قلبه . أما فيلي أنا فقد سقط على ركبتيه فظننت أني أصبت منه مقتلاً ، ولكن سرْعان ما نهض وأخذ يجري نحوي فاغتنمتها فرصة وسدّدت إليه طلقة ثانية في الضلوع هوَى على أثرها صريعاً .

والتفتُّ لأعرف ماذا كان مصير فيل « جود » فرأيته قد أصيب بجرح بالغ ، ولكنه برغم ذلك قد جرى إلى ناحية « جود » جرياً حثيثاً ، فتملّك « جود » الرّعب ، وهرب من وجهه واختبأ وراء — صخرة من الصخور ، واستمرّ الفيل يركض في ناحية خيامنا حتى غاب عن الأنظار . وكان الذّعر قد دبّ في قلوب بقيّة الفيلة فولّت الأدبار في غير نظام ولا ترتيب وسارت وهي تَنْهَم وتنأم في غير الجهة التي سار فيها الفيل الجريح . وحال جزَعُنا على صاحبنا «جود» دون أن نُجْهِزَ

على الفيل الهارب ، فهُرِعْنا إليه وناديناه ، فخرج وهو يحرق الأرم غيظاً على أن فاتته هذه الفرصة الثمينة .

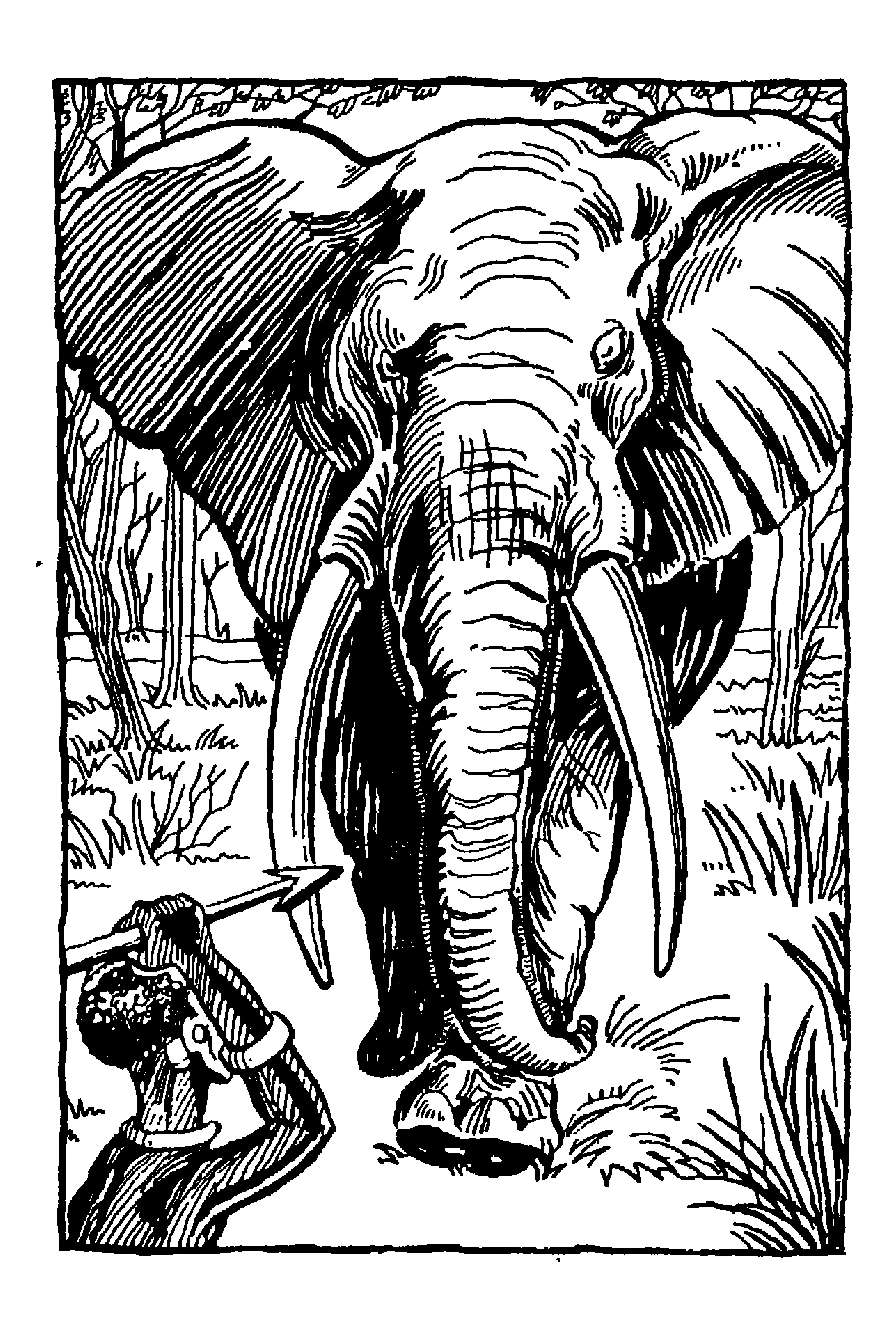
وتشاورنا نحن الثلاثة أنتعقّب الفيل الجريح أم نتعقّب بقيّة الفيلَة الهاربة ؟ فقرّ قرارنا على الأمر الثانى ، فما زلنا نُغِذُّ فى السير وراءها حتى أدركناها ، وكأنها شعرت بتعقّبنا إياها فتفرّقت فى المسالك والشّعاب لا تلوى على شيء .

ورأينا خمسة منها تنزل فى مستنقَعٍ جافٍّ لتختصر الطريق إلى ما وراء الآكام ، فقضى عليها سوء حظها أن تعلق بوحل ذلك المستنقَع ، وأن تتخبّط فيه فلا تستطيع منه فراراً . فاقتربنا منها وكانت لنا هدفاً سهلا فأرديناها جميعاً .

وكان قد حان وقت الأصيل فقرّرنا الرجوع إلى خيامنا تاركين إلى غد مهمةَ نَزْعِ أنياب الفيلَة .

عُدْنا إلى الخيام فلمحنا على قرب منا وعلاً جميلا ، فأبى « جود » إلا أن يصطاده ، فخفّ إليه يصحبه الفتى « كيفا » وشغلت أنا « والسير هنرى » بتنظيم بعض الأمور فى الخيام .

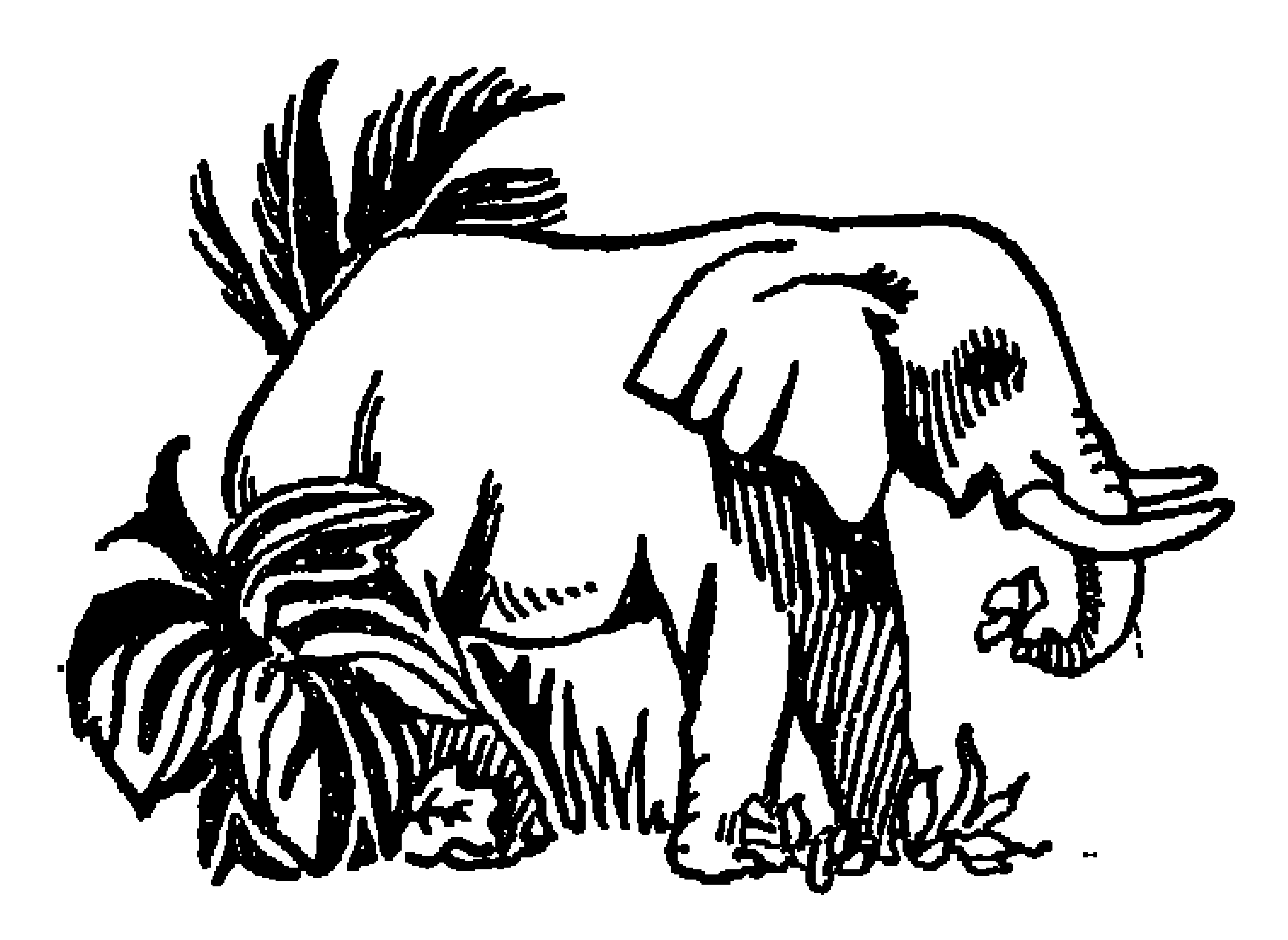
وما هى إلا دقائق قليلة حتى سمعنا نَهِيم فيلٍ عظيم يرجّ الفضاء رجّاً ، فخرجنا نتقصّى جلية الصوت ، فإذا الفيل الجريح قد رجع يعدو صَوْبنا ويكاد يقترب من « جود » و « كيفا » المنهزمَين أمامه ، فحِرْنا فى أمرنا وخشينا إن نحن أطلقنا رصاصنا أن نصيبهما بسوء ، وازددنا فزعاً



ورعباً لما رأينا « جود » يتعثّر وينطرح أرضاً وليس بينه وبين الفيل إلا مسافة أمتار قليلة ، وكاد الفيل يناله بخرطومه ويطؤه بقدميه الغليظتين لولا شجاعةٌ فائقة أبداها الفتى « كيڤا » ، فإنه لما رأى أن « جود » قد زلّت قدمه وسقط ، وأنه سيدوسه الفيل لا محالة ، استدار على عقبيه وسدّد رمحه ورمى به الفيل فأصابه فى خرطومه ، ولكن الفيل تحامل على نفسه ووثب إلى « كيڤا » فخبطه بخرطومه فوقع ثم داس عليه فى وحشيّة منكرة ، فما كان منّا إلا أن أمطرنا ذلك الفيل الهائج وابلاً من الرصاص فسقط قتيلاً فوق جثّة الشهيد « كيڤا » .

وكان « جود » قد نهض من عثرته ، وشهد ذلك المشهد الأليم ، فأخذ يعَضّ أنامله ندماً وحزناً على ذلك الفتى الشجاع الذى ضحّى بحياته فى سبيل إنقاذه من أنياب الفيل . وتقدّم « أمبوبا » إلى حيث كان الفيل مجدّلاً فوق جثّة الفتى « كيڤا » وحدّق قليلاً فى الصّريعين ثم قال :

— « لقد مات ”كيڤا“ ميتة الرّجال ! ! »





٥

قضينا يومين فى انتزاع أنياب الفيَلة الثمانية التى قتلناها ، فاجتمعت لدينا كميّة عظيمة من العاج دفنّاها تحت جِذْع شجرةٍ ضخمة ، وأقمنا حولها الأدلّة والشواهد ليسهل علينا معرفتها عند رجوعنا من حملنا .

كذلك دفنّا الفتى « كيفا » ودفنّا معه رمحاً ليحميه فى رحلته إلى العالم الآخر .

وفى اليوم الثالث سارت قافلتنا ، وجدّدْنا فى السير حتى وصلنا إلى قرية تبتدئ فى نهايتها تلك الصحراء القاتلة التى تُفضِى إلى جبال سليمان ، فلعبت بفؤادى الذكريات ، وثارت فيه بواعث الخوف والقلق عندما تذكّرت أنى كنت فى هذه البقاع منذ نحو عشرين سنة ، وأن « سلفستر »

المسكين قد لفظ فيها أنفاسه بين يدىّ وذهب ضحيّة الصحراء بل ضحيّة كنوز سليمان .

تركنا للربّان «جود» مهمّة نصب الخيام ، وذهبت أنا و «السير هنرى» نستطلع ونستكشف ، فقُدْتُه إلى الهضبة التى تبتدئ عند سفحها الصحراء فعلوناها ، وكان الجو صحواً فاستطعنا أن نرى على مرمى البصر جبال سليمان المكلّلة قِمَمها بالثلوج ،ولم أملك نفسى عن أن أهتف : يا سبحان الله !! أصحراء قاتلة تنتهى إلى جبال معمّمة بالثلج ! ! ثم قلت لرفيقى :

— « انظر إلى قمم تلك الجبال ! إن وراءها كنوز سليمان . . . »

فقال بلهجة الواثق المطمئن وهى صفة من الصفات التى يمتاز بها :

— « إن شقيقى لابد أن يكون هناك، فإن صحّ هذا فعلىّ أن أدركه فيها . . . »

وعدنا إلى الخيام ، وقضينا فيها ليلة مطمئنة، نشطْنا بعدها فى صباح اليوم التالى إلى الاستعداد للرحيل ، فرأينا أن لا نزحم أنفسنا بالسلاح الثقيل ، فصرفنا الحمّالين واستبقينا واحداً منهم جعلناه حارساً على كل ما تركنا من عتاد وذخيرة .

ثم رأينا أنه قد نحتاج إلى الماء فى تلك الصحراء ، فحمولة كلٍّ منا على اختصارها لا تسمح بأن نحمل معها قِرَب الماء ، فاخترنا ثلاثة من الحمّالين ،وطلبنا إليهم أن يحملوا قِرَب الماء ويوصلوها إلى المرحلة الأولى

من سَفرتنا ، أى إلى بُعْد عشرين ميلا ثم يعودوا، بَعْد إذ أوهمناهم أننا ذاهبون لاصطياد النّعام . فضحكوا علينا فى سرّهم ما شاءوا أن يضحكوا، وتجرّأ أحدهم فقال : «ستهلكون عطشاً يا سادة » وقبلوا هم الثلاثة مع ذلك أن يصحبونا إلى المرحلة الأولى فى رحلتنا .

وبقينا ننتظر مغرب الشمس ومطلَع القمر ، فغربت تلك وطلع هذا يتهادَى فى قبتّه الزرقاء ، ويرسل خيوطه الفضيّة إلى الغِياض والقفار .

وفى نحو الساعة التاسعة جمعنا « السير هنرى » فوقفت أنا عن يمينه و « جود » عن يساره ، ووقف «أمبوپا» على بعد منّا ، معتمداً رمحه وحاملاً بندقيّته وهو يُطيل النظر فى الصحراء الواسعة . ووقف « عصفور الهواء » والحمّالون الثلاثة بقِربَ بهم المملوءة أبعد قليلاً من«أمبوپا» فسمعنا « السير هنرى » يقول بصوت رزين خطير :

— « أيها السادة ! إننا نوشك أن نبدأ رحلة من أغرب الرحلات التى قام بها بنو الإنسان . . . ونتيجة هذه الرحلة أمرٌ تُحيط به الشكوك والرِّيَب. . . على أننا نحن الثلاثة مصمّمون على الذهاب فيها حتى النهاية مهما كان مصيرنا فيها . . . والآن قبل أن نخطو الخطوة الأولى فلنرفع قلوبنا إلى الله ، ونضع بين يديه مصايرنا ، ونطلب منه أن يقود خطانا...»

قال هذا ونزع قبّعته واعتمد رأسه بين يديه ، وفعلنا نحن مثله ثم صاح فينا بعد دقيقة أو دقيقتين : « والآن إلى الأمام ! »

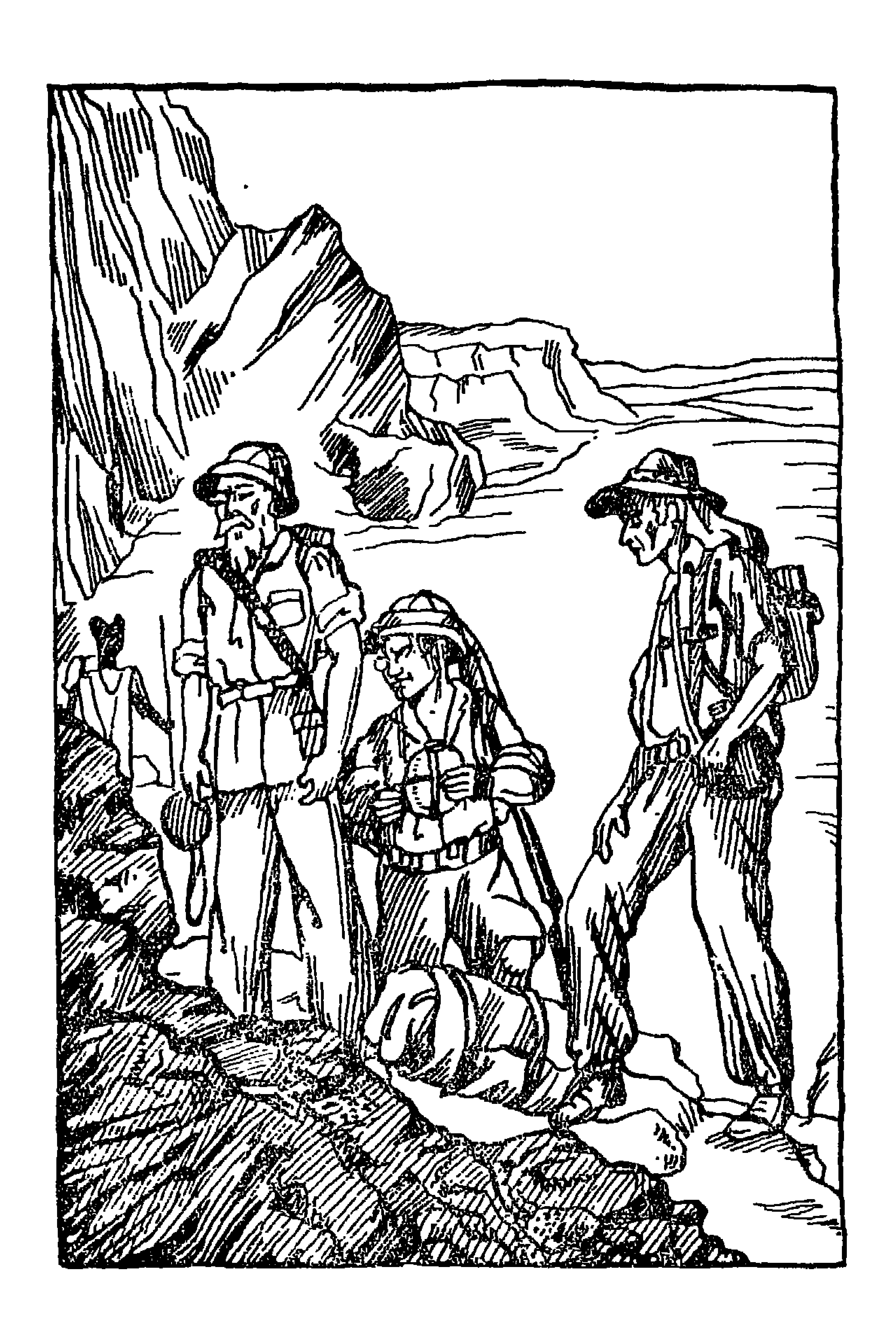
فمشى ومشينا جميعاً وراءه .

توغّلنا فى الصحراء ، واستمررنا نسير حتّى الساعة الواحدة من الصباح لا نقف إلا لننتزع عن أرْجُلنا الشوك والعَوْسَج ، أو لنُفرِغ أحذيتنا من الرمل المتسرّب إليها . وبعد استراحة قصيرة جَرَعنا فيها جرعات ماء قليلة . استأنفنا السير حتّى غاب القمر وطلعت الشمس ، واستحال ذلك النور الأبيض الباهت المنبسط على الصحراء كغِلالةٍ مهفهفة ، إلى نور قوىّ ساطع تلتمع الصحراء تحته كسبيكة من الذهب .

ومن حسن حظّنا أننا عثرنا فى أثناء مسيرنا على قطع من الصخور مبعثرة . فنزلنا عندها وتدارينا بها ، وتناولنا قليلاً من الطعام والشراب ، ثم نمنا نوماً عميقاً ولم نستيقظ جميعاً إلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

ونظرنا فإذا الحمالون الثلاثة يَهُمُّون بالرجوع ، فقد اجتازوا معنا من الصحراء مسافة أكبرَ مما قدّرنا وقدّروا ، فعمَدنا إلى زجاجات الماء التى معنا ، فشربنا منها حتى ارتوينا كلّ الرىّ ، ثم ملأناها من القِرَب ، وصرفنا الحمّالين فعادوا أدراجهم .

وضربنا نحن فى كَبِد الصّحراء زُهاء ساعة فلم نَقْوَ على متابعة السّير ، فأخذنا نُدارى أنفسنا من وَهَج الشمس بما وصلت إليه أيدينا حتّى أقبل المساء وطلع القمر ، فمشينا الليل كله وتوقّفنا فى الصباح ، ثم ازدادت حرارة الشمس فى ضحوة النهار ، فنضحت أجسامنا بالعرق حتّى كدنا نلفِظ الأنفاس ، وليس هناك مأوى نأوى إليه . وزاد الطين بَلّةً أننا كنا



مع الحرّ والعطش معرّضين لجيوش من الذّباب لا تفتأ تُغير علينا وتلسَعنا لسعات قارصة .

وفى أثناء ذلك الضّيق الشديد ، اقترح علينا « جود » أن نحفر فى الأرض حُفَراً نلتجئ إليها ، ونغطّيها بالعَوْسَج فراراً من حرارة الشمس ، حتّى يهبط المساء فنستأنفَ المسير .

كان الاقتراح معقولاً وإن لم يَقِنا كلَّ الوقاية من وهج الشمس وحرارة الرّمل ، ولكن لا بدّ من اختيار أهون الشرّين فاخترنا هذا المدفن المؤقّت ، إلا « عصفور الهواء » فقد كان من قبيلة لا تؤثّر فى رجالها الشمس مهما اشتدّت حرارتها .

وانقضت علينا فى ذلك القبر ساعة شعرنا معها أننا نكاد نختنق ، فآثرنا أن نموت ونحن نمشى فوق الأرض على أن نموت ونحن مدفونون تحتها ، فنهضنا وبلّ كلٌّ غليله بجرعة ماء ، وهالنا أن نلاحظ نقصان ذخيرتنا من الماء فإن فاتنا أن نموت من الحرّ فسوف نموت من العطش .

ومشينا . . . ولعل كلمة مشينا لا تصوّر الواقع ، فما كنا نمشى بضعة أمتار حتّى نتعثّر ونقع ، فنزحف حيناً ، وننهض نستأنف المشى حيناً آخر ، وبقينا على هذا الجحيم حتّى غربت الشمس ، فاستلقينا نستريح بعد أن تبلّغنا بقليلٍ من الزاد ، وبآخر ما بقى لدينا من ماء ، عاقدين العزم على أن نستأنف السير عندما ينير لنا القمر وَضح السّبيل .

ولم نكد نتمدّد مرهَقين متعَبين حتّى أقبل علينا « أمبوپا » ولفت

أنظارنا إلى شيء أغبش في وسط الصحراء، يبعُد عنا نحو ثمانية أميال ، فأمعنّا النظر وحقّقْنا فلم نستطع أن نتبيّن أى شيء هو ،فعدنا نستلقى طلباً للاستجمام والراحة ، فسمعت « أمبوپا » يقول لنفسه بلغة الزولو : إذا لم نعثر على الماء فسوف نهلك جميعاً قبل أن يطلُعَ علينا القمر ليلة غد .

استرحنا نحو ساعتين ، ثم قمنا نتابع السير فى ضوء القمر ، ولما كنا فى أثناء الطريق ، تذاكرت أنا و « السير هنرى » و « جود » فى أمرنا ، وعرضنا للمسافة التى قطعناها فإذا هى خمسون ميلا فقلت :

— « إذا صدقت خريطة "سلڤسترا" الكبير فيبقى علينا أن نجتاز ٧٠ ميلاً لأنه يذكر أن عرض الصحراء هو ١٢٠ ميلاً ،وإذا صدقت تلك الخريطة أيضاً فنحن على بُعْد عشرة أميال من مستنقع الماء الذى يقوم فى وسّط الصحراء . » فقال « جود » رافعاً يديه إلى السماء :

— « ربِّ ليته من الصادقين يا أرحم الراحمين ! »





٦

مشينا حتى الساعة الثانية من الصباح فوصلنا إلى ذلك الشيء الأغبش ، فإذا هو كثبانٌ من الرمل ، فخاب فألنا وتهالكنا إلى الأرض خائرى القوى نكاد نموت من العطش . واستولى علينا سُبات عميق ، ولكننى استيقظت بعد ساعتين على حزازة العطش ، فاستحال علىّ أن أنام ثانية . وكيف أنام وقد كنتُ أحلمُ أنى أستحمّ فى جدول ماء صاف يجرى بين الرياض والغِياض ، فى حين أن الحقيقة المرة هى أننى فى قَفْر بَلْقَع ، وعلى قاب قوسين أو أدنى من الموت عطشاً كما قال « أمبوپا ».

استيقظ رفاقى عند بزوغ الفجر وهم يفركون جفونهم المقرّحة وشفاههم الملتصقة ، وجلسنا جميعاً ندرس موقفنا فإذا هو جدٌّ خَطير وخَطِر ، فليس

لدينا نقطة ماء واحدة ، ولسوف نتساقط واحداً بعد الآخر ونموت وحلوقنا جافّة ملتهبة . وكان « عصفور الهواء » فى تلك الأثناء يجول فى أطراف الصحراء وكُثْبان الرمل ، وأنفه مرفوع فى الهواء فعاد إلينا وهو يقول :

— « أشَمُّ يا سادة رائحة ماء ! »

فوقع كلامه من صدورنا الحرّى موقع الغيث من الأرض الجدْباء ، فابتسمنا للقدر أو ابتسم لنا القدر ، ووثبنا جميعاً نفتش عن ذلك الماء الذى شمّ « عصفور الهواء » رائحته .

ولا تسألوا عن مبلغ يأسنا وخيبة أملنا لما مشينا أكثر من ساعة فلم نعثر على شيء يسمّى ماء ، فساورنى الغضب وقلت « لعصفور الهواء » .

— « أيها الأحمق ! أين الماء ؟ »

فلم يجبنى وإنما رفع أنفه يشمّ الهواء ثم قال :

— « إنى أحِسُّ بوجود ماء يا سيّدى فالهواء مبال به . . . ! »

وهَمَمْت أن أعنّفه فحال دون ما رغبت صوت « أمبوپا » وكان يتقدّمنا قليلاً وهو يقول بلغة الزولو :

— « هنا الماء . . . هنا الماء . . . ! »

فحدّثوا عن فرحنا ولا حرَج ، فطِرْنا إليه على ما بنا من ضعفٍ وخَوَر ، فإذا فى قمّة أحد الكثبان حُفْرة يتدفّق فيها الماء ، فانكببنا على الحفرة ننهَلُ ونعُبّ من الماء ، ولم نحفِل بطعمه ولا بلونه ، إنه ماء وكفى . شربنا وشربنا ، ثم نزلنا فى الماء نستحمّ ونتبرّد بعد القَيْظ اللاهب

الذى تعرَّضنا له ، وعند الظهر أكلنا طعامنا بشهوة لا مزيد عليها .

وفى المساء شربنا أيضاً وملأنا الزجاجات حتّى الشفة ، وسرنا فى ضياء القمر مجدَّدى القوى والنشاط ، فقطعنا فى تلك الليلة ٢٥ ميلاً ولكننا لم نجد فى خلالها أى مَنبَع ماء ، وإنما وجدنا فى ضُحَى اليوم التالى بعض الكثبان فتدارينا بها . وكانت الشمس قوية الشّعاع فبدّدت ضَباب الليل ، وبَدَت لنا جبال سليمان فى عظمتّها وجلالها ، ورأينا منها « الشقيقين » وكأنهما مع بعدهما عنا ينهضان فوق رؤوسنا .

وفى فجر اليوم التالى وصلنا إلى أول سفح من سفوح « الشقيق الأيسر » ، وكانت ذخيرتنا من الماء قد نفدت للمرة الثانية ، فبدأ العذاب والعطش يُبَرِّحان بنا ولا أمل لنا فى النجاةِ إلا بالوصول إلى الثلوج المتراكمة فوق الجبل .

تحاملنا على أنفسنا وَجَدَدْنا فى السير ، وقطعنا هَضبَة بعد أخرى حتى كان الظهر فسقطنا إلى الأرض من العطش والتعب والإعياء .

أما « أمبوپا » فاستمرّ يسير ، وما هى إلا بضع دقائق حتّى رأيناه عائداً إلينا وهو يغنى ويرقص كالمجنون ، وفى يده شىء أخضر ، فخَفَفنا كلنا إليه على أمل أن يكون قد عثر على ماء فما إن اقتربتُ منه حتّى صحت فيه :

— « ما بك أيها الأبله ؟ ! » فقال وهو يلوّح بالشىء الأخضر الذى فى يده :

ـ « عثرنا على ما نأكل منه ونشرب ! »

فأمعنّا النظر فيما كان فى يده فإذا به بطّيخة ، وإذا بنا على مقربة من حقل بطّيخ وحشى ، فتهافتنا عليه وأكل كلٌ منا أكثر من ستٍّ بطّيخات ، وعندما استأنفنا التصعيد فى الجبل مساء ذلك اليوم ، حملنا معنا ما استطعنا حمله من ذلك البطّيخ .

وكنا كلما ازددنا تصعيداً شعرنا بأن الهواء يزداد برودةً فننتعش ونحن فى المسير ، حتى أصبح لا يفصلنا عن مواقع الثلوج إلا نحو ١٢ ميلا . ولشدّ ما كانت دهشتنا أننا لم نقابل فى تلك الجبال مخاوقاً ، ولا صادفنا شلالاً على كثرة الثلوج المتجمّعة فوق قمم الجبال ، فعرفنا بعد ذلك أن جميع الشلالات كانت فى الناحية الأخرى من الجبل .

وظللنا نصعد يوماً بعد يوم حتى كدنا نبلغ القمّة ، ولكن يالسخرية الأقدار ! كنا إلى أيام قلائل نكاد نموت من العطش والحر ، أمّا الآن فنكاد نموت من الجوع والبرد فما عثرنا على حيوان نصطاده ونأكل لحمه بعدما فرغ لدينا الزاد ، ولا عثرنا على مكان نتقى به شر البرد عندما يقبل الايل . إن « عصفور الهواء » الذى لا تؤثر فى جسمه حرارة الشمس ، تدعو حاله إلى الشفقة فى هذا الجو البارد القارس ، على أننا لسنا أحسن حالاً منه ، فالبرد شديد ينفُذ إلى العظام .

وصلنا إلى تحت القمّة قبيل مغيب الشمس فقال لى « جود » :

ـ « ألا تظن أننا على مقربة من الكهف الذى أشار إليه "دا سلفسترا"

فى وثيقته ؟ » فقلت :

— « نعم لو صح ما قال وكان لذلك الكهف وجود ! » فقال « السير هنرى » :

— «على رِسْلك يا "كاترمان" لا تظلم الرجل فإن لى ملء الثقة بذلك البرتغالى فقد ذكر فى وثيقته الماء فعثرنا على الماء وسوف ترى أننا سنعثر كذلك على الكهف ! » فقلت :

— « إذا لم نعثر على الكهف قبل أن يهبط الليل فعلى الدنيا السلام ! »

وسرنا نحو عشر دقائق فى ذلك الجليد وأسناننا تصطكّ من البرد ، وكان « أمبوپا » يمشى إلى جانبى ملتحفاً بغِطاء من الصوف فهزّ فجأة ذراعى وقال :

— « انظر ! »

فنظرت حيث أشار فبدا لى أنى أرى ثقباً فى الثلج فقلت له :

— « وما ذاك ؟ » فقال :

— « إنه الكهف » .

فاقتربنا من ذلك المكان ، فإذا هو مدخل كهف ، فما شككنا أنه الكهف الذى ذكره « دا سلڤسترا » فدخلنا فيه وسرعان ما غابت الشمس وتركتنا فى ظلام دامس .

ولما نهضنا فى الصباح على أشعّة الشمس الدافئة التى تسرّبت إلى مدخل الكهف ، استولى علينا حزن شديد إذ رأينا « عصفور الهواء »

جثّة باردة ، فقد نَهشَه البرد بأنيابه وتركه جسداً بلا روح.

وبينا نحن نجول فى الكهف وجدنا أنفسنا إزاء جثّة أخرى هامدة ، ولكنها جثّة رجل أبيض ، فحطم هذا المنظر شجاعتنا وخرجنا مسرعين من الكهف ، ووقفنا قليلا نستجمع قُوانا وخواطرنا فقال « السير هنرى » :

ــ « إنى عائد إلى الكهف . » فقال « جود » :

ــ « ولماذا .؟ » فقال « السير هنرى » :

ــ « لفكرة تراود خاطرى فقد تكون الجثّة التى رأيناها جثّة أخى ! »

فعُدنا جميعاً إلى الكهف وانحنى « السير هنرى» على الجثّة يفحصها ويتبينّها ثم نهض وهو يتنفّس الصعداء ويقول :

ــ « الحمد لله . . . إنه ليس أخى ! »

واقتربت أنا من الجثّة أطيل التحديق فيها ثم قلت :

ــ « ترى من الرجل ؟ » فقال « جود » :

ــ « ألم تحزر من هو ؟ »

فهززت رأسى سَلْباً فقال :

ــ « من تريد أن يكون ؟ إنه "جوزى دا سلفسترا" يا عزيزى ! »

فقلت :

ــ « هذا محال! لقد مات الرجل منذ ثلاثة قرون ! » فقال « جود » :

ــ « فليكن ! إن جوًّا مثل هذا كفيل بأن يحفظ الجثث ثلاثة آلاف سنة . . . فلا شمس ولا نور ولا حيوان ، وأغلب الظن أن

خادمه لما لم يَقْوَ على دفنه ، تركه هنا وسلبه ملابسه وما تحتوى . . .
أفتريد برهاناً أسطع على ما أقول ؟ فهذا هو . »

وانحنى «جود» وتناول من الأرض قطعة عظم مبريّة وقال :

— « بهذا كتب وثيقته ! » وزاد « السير هنرى » فقال :

— « وهذا هو الحبر الذى استعمله ! »

وأشار إلى جرح فى ذراع الميت اليسرى ، ثم خرجنا ثانية من ذلك الكهف مذهولين ، وبعد لحظات قصار تابعنا المسير فى كآبة ظاهرة ، ووصلنا بعد قليل إلى رأس هَضْبة تنتهى بأرض معشبة يخترقها شلاّل عظيم ، ولمحنا عند جانب من الشلاّل جماعة من الغزلان فكدنا نطير من الفرح ، وفى الحال سددنا إليها بنادقنا رغم البُعْدِ الشاسع فانجلى غبار البارود عن فريسة واحدة فخفَّ إليها «أمبوپا» وبدأ يسلُخها، ولما لم يكن لدينا ما نتّخذه وَقوداً اضطُرِرْنا إلى أن نأكل لحم الغزال نِيئاً فالجوع كافر والمضطرّ يركب الصّعب . وبعد أن أكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً قال « السير هنرى » :

— « ألم تشر الخريطة إلى طريق سليمان ؟ ! » فقلت :

— « بلى أشارت . . . » فقال :

— « إذن هذا هو ! »

فوجّهنا الأنظار إلى حيث مدّ يده ، فكشفت لنا بداية طريق عظيم ، فقرّ رأينا على أن نسلكه فى الحال وهكذا كان .



وعلى حين فجأة التمست « جود » فلم أجده ، فبحثت عنه وأنا فى مكانى فرأيته قد خلع ثيابه ونزل يستحم فى إحدى السواقى ، ثم خرج وتنشف وارتدى ملابسه ، وأخرج من جيبه كيساً صغيراً فيه مشط ومرآة صغيرة وأدوات الحلاقة وبدأ يحلق ذقنه فقد كان معنياً كل العناية بزينته وزيه .

ولم يكد يحلق خده الإيمن حتى رأيت دفقة من نور قد مرت فوق رأسه ، فقفز من مكانه وقفزت أنا أيضاً من مكانى مدهوشاً مستغرباً ، والتفت ورائى فوجدت عشرة رجال طوال القامات سمر الوجوه قد شك بعضهم فى رأسه مجموعة من الريش الأسود، وارتدى بمعاطف قصيرة من جلد الفهود ، وكان يتقدمهم فتى يناهز السابعة عشرة من عمره ، لا يزال مرفوع الذراع مائل الجسم إلى الأمام فى وضع التماثيل الإغريقية من رماة الأقراص ، ففهمت أن دفقة النور التى لمحتها إنما هى سلاح رماه هذا الفتى .

وبينما كنت أصعد نظرى فى تلك الجماعة ، رأيت محارباً عجوزاً منهم قد سارع إلى الفتى وأمسك بذراعه ، وأسر فى أذنه بعض الكلمات ثم رأيتهم جميعاً يتقدمون نحونا .

وكان « السير هنرى » و « أمبوپا » قد خف كل منهما إلى بندقيته وسددها إلى القادمين ، فلم يحفلوا بهما واستمروا يسيرون ، فأدركت أنهم لا يعرفون البنادق ولا ما تهددهم به من خطر فصحت فى زميلى :

ـ « لا تُطْلقا النار ! »

وأيقنت أن المسالمة هي وحدها تنقذنا من شرّهم ، فاستمعا لنصحى وتقدّمت من العجوز الذى أمسك بذراع الفتى وقلت له بلغة الزولو وأنا لا أعرف بأية لغة يتكلم :

ـ « سلام ! »

ففهمنى وأجابنى بلغة قريبة جدًّا من لغة الزولو :

ـ « سلام ! من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ وما بال ثلاثة منكم بيض الوجوه ورابعكم أسمر أسود كأبناء أمنا ؟ ! »

ـ « نحن قوم غرباء نحبّ أن نعيش فى أمن وسلام وهذا خادمنا . » فقال :

ـ « إنك تكذب ، فما من غريب يستطيع أن يجتاز الجبال حيث يموت كل شىء . . . فسواء كذبت أم لم تكذب فلابدّ من قتلكم ما دمتم غرباء ، فلا يُسْمح أبداً لغريب أن يعيش فى بلاد "الكوكوانا" . هذه شريعة الملك فاستعدّوا للموت أيها الغرباء ! »

ولمحت بعض هؤلاء الرجال قد وضعوا أيديهم على السكاكين الكبيرة المتدلية من خصورهم فسألنى « جود » :

ـ « ماذا يقول ؟ » فقلت :

ـ « يقول إنهم سيبعثوننا إلى العالم الآخر . » فتنهّد وقال :

ـ « يا للداهية ! »

وبحركة كانت من عادته إذا فكر فى حل مشكلة عويصة ، عمد إلى مجموعة أسنانه الصناعية التى فى فمه وانتزع الصف الأعلى منها وضرب به الصف الأدنى ثم تركه فعاد إلى مكانه فى دوىّ حادّ .

كانت هذه الحركة موفقة سعيدة فقد ألقت الذعر فى قلوب رجال « الكوكوانا » فتراجعوا نحو عشرين متراً إلى الوراء فقال له « السير هنرى » بصوت منخفض :

— « حسناً فعلت "يا جود" انتزع مجموعة الأسنان كلها ! »

فلبى « جود » الطلب وانتزع مجموعة أسنانه وأخفاها فى كمه ، فعاد هؤلاء الرجال إلينا يدفعهم الفضول وكأنهم نسوا أنهم حكموا علينا بالموت ، فتقدم كبيرهم وقال وهو يشير إلى « جود » :

— « كيف يمكن هذا الرجل أن يكون ذا شعر فى خدٍّ واحد ، وأن تتحرك أسنانه بحيث تخرج من فكّيْه وتعود إليه ؟ ! » فهتفت أقول « بجود » :

— « افتح فمك . . . »

ففتح « جود » فمه وقلب شفتيه فصاح الرجال :

— « أين أسنانه ؟ ! فقد رأيناها منذ لحظة بأمّ أعيننا ! »

فأدار « جود » وجهه ، ومرّ بيده على فمه ، وأخذ يقهقه فى أعين القوم وقد بانت أسنانه البيض اللامعة . فخرّ الفتى الذى رمى « جود » بالسكين إلى الأرض يختلج رعباً وذعراً ، أمّا المحارب العجوز فقد اصطكّت

ركبتاه من الدَّهَش فقال :

— « أرى أنكم من الأرواح فعذراً يا سادة وسامحونا ! »

فاغتنمت هذه الفرصة الذهبية وقلت :

— « سنعفو عنكم ! وستعرفون حقيقتنا ! اعلموا أننا وإن كنا رجالاً مثلكم ، فإنما جئناكم من عالم آخر ، جئناكم من أكبر نجم يسطع ليلا فى السماء ! قد تظنّون أننا عاجزون عن أن نثأر لأنفسنا من هذا الاستقبال السيّئ الذى خصصتمونا به ، فيالضلال ما تظنّون! انتظروا قليلاً لأريكم مبلغ سلطاننا ! » والتفتّ إلى « أمبوپا » وقلت :

— « أيها العبد ! ناولنى الأنبوبة السحرية التى تتكلّم . »

وغمزته بعينى وأشرت إلى بندقيّتى ذات الطلقات الكثيرة المتتابعة ، فعرف « أمبوپا » كيف يتقن التمثيل ، فجاءنى ببندقيّتى وانحنى حتى الأرض وهو يقول :

— « هذه هى يا ملك الملوك ! »

وكنت قبل أن أطلب البندقية قد لمحت غزالاً على بُعد سبعين خطوةً منا ، فسدّدت البندقية إلى الغزال تسديداً محكماً حتى لا أخطئه ولا يضيع نفوذى ، وكبست على الزناد فانطلقت الرَّصاصة وأصابت الغزال فأردته قتيلاً ، فكادت عيون القوْم تخرج من محاجرها رُعْباً ودَهَشاً وأمعنت فى التمثيل فقلت :

— إذا كنتم لاتزالون تشكّون فى مقدرتنا وسلطاننا ، فليقف أحدكم

على هذه الصخرة وأنا أفعل به ما فعلت بهذا الغزال ! »

فما تحرّك أحد فقال رجل منهم :

— «آمنّا بسحركم يا سادة ! إنه يفوق سحرنا أضعافاً مضاعفة ! »

فقال العجوز :

— « هذا صحيح . . . فاسمعوا يا أبناء النجوم ، أصحاب الأسنان المتحرّكة ، يا من تزأرون مثل الرعود وتقتلون عن بُعْد . . . أنا "إنفادو ابن كافا" الملك السابق لشعب "الكوكوانا" ، وهذا الفتى هو "سكراجا ابن طوالا" الملك العظيم . . . "طوالا" هو السيد الأعلى لقبائل "الكوكوانا" وحارس الطريق الكبير . . . هو كابوس أعدائه وزعيم السِّحْر الأسود ، ورئيس مئة ألف محارب . . . » فقلت :

— « ليكن من يكون . . . فهيّا بنا إليه . . .»





٧

سرنا جميعاً إلى مقرّ الملك مجتازين طريق سليمان ؛ نهبط منه حيناً إلى الأودية ، ونصعّد حيناً آخر فى التّلال والهِضاب ، فمررنا بكثير من القُرَى والأكواخ ، وقابلنا آلافاً من الرجال وكلهم على استعداد لخوض المعارك والقتال ، وكان « إنفادو » يحمينا منهم بإشارة منه فقد كانوا رجاله . . .

مشينا حتّى المساء فاستضافنا « إنفادو » فى بعض الأكواخ لنستريح وننام ونستأنف السير فى الصباح إلى لقاء الملك . وكدنا نستلقى على أقفيتنا من الضحك عندما سمعنا «إنفادو» يرحّب بنا ويدعونا إلى دخول الكوخ قائلا :

— « تفضلوا بالدخول يا أبناء الكواكب والنجوم ! » فقلت :

— « لا بأس فنحن مُتْعبون من التحليق فى الفضاء والسير فوق مناكب السّحاب . . . إننا نقبل ضيافتك راضين مسرورين . . . »

ودخلنا الكوخ الذى دعانا إليه ، ثم ما عتّمنا أن رأينا سرباً من الفتيات أقبلن يحملن قِصاع الطعام من لحمٍ ولبن وعسل ، فأكلنا ونحن لا نفتأ نحدّث « إنفادو » ويحدّثنا .

طرحت عليه وابلاً من الأسئلة ، فكانَ يجيب عنها فى صراحة ووضوح ، ولقد فهمنا من أحاديثنا معه أن الملك « طوالا » ليس الملكَ الشرعى وإنما هو قاتل أخيه الأكبر ومغتصب عرشه ، وأن زوجة القتيل قد هربت هى وطفلها « إنيوزى » البالغ من العمر ثلاث سنوات واتجهت إلى ناحية هذه الجبال فى الشمال ، ولابدّ أن يكونا قد ماتا لأنه لم يعثر لهما على أثر ، ولأن هذه الجبال تقضى على كل من يذهب إليها فقلت :

— « ومتى حدث ذلك ؟ » فقال :

— « منذ نحو ثلاثين عاماً . » فقلت :

— « لو وُجِد هذا الطفل لكانَ إذن ملككم الشرعى ! » فقال :

— « هو ذاك وعلامته الفارقة تلك الحيّة المقدسة الملتفّة حول خصره ، ولكن كل هذا أوهام فى أوهام . . . »

وتركنا « إنفادو » فى الهزيع الأول من الليل وانصرف ، فاستسلمنا نحن إلى الرقاد .

وفى الصباح تابعنا المسير فمشينا النهار كله واسترحنا فى الليل حتى

وصلنا فى ضحى اليوم التالى إلى ما يشبه مدينة صغيرة من المدن ، تناثرت فيها الأكواخ والخيام . وكان على مرتفع من الأرض منها كوخ يمتاز عن بقيّة الأكواخ ، ويدلّ مظهره وأناقته على أنه كوخ الملك تعجّ من حوله الرجال والحُرّاس .

وكان الملك قد سبقتنا إليه الرُّسُل ، فعلم بمَقْدَمِنا ، ولعلّه أمرَ بعض كتائبه فتجمّعوا فى ذلك السّهل المنبسط أمام كوخه ، لأننا ما كدنا نُشْرِف على ذلك السهل حتى رأينا فيه ما لا يقل عن ثمانية آلاف رجل ، تتدلّى الخناجر والسكاكين من أحزمتهم ، وتبرُق أسنّة الرماح فوق رؤوسهم .

اقتربنا من ذلك المكان الرهيب ، فتركنا « إنفادو » وذهب يخبر الملك بوصولنا ، ولاحت لى وراء السهل ثلاثة جبال فقلت لأصحابى :

— « انظروا فهذه هى الجبال المخبوءة فيها كنوز سليمان ! »

وكان « أمبوپا » فى جميع هذه المراحل ساهم الوجه مشرد الفكر ، كمن يعتلج فى صدره أمر خطير .

ورجع «إنفادو » بعد قليل وصَحِبَنا إلى كوخ الملك ، حتى إذا كنا على بُعد خطوات منه ، فتح الباب وخرج منه رجل عملاق قد ارتدى بجلد نَمِر ، ووراءه ابنه « سكراجا» ومخلوق أشبه بالقرود ، وقد التحف بمِعْطف من الفراء .

فنزع ذلك العملاق جلد النمر عنه ، فبدا لنا فى منظر يثير الرّعب والاشمئزاز : فمن شفتين غليظتين ، وأنف مطموس ، وعين واحدة تبرق

بالخُبْث والشرّ ، فى حين كانت الثانية مقلوعة ولا يظهر منها إلا ثقب عميق . وكان فوق رأسه الضخم ريشة نَعام بيضاء جميلة، وحول جسمه درع من الزَّرَد ، وفى يده اليمنى رمح طويلة . وكان فى عنقه قلادة ضخمة من الذهب ، وفوق جبينه ألماسة كبيرة الحجم غير مصقولة .

تقدّم ذلك الجبار خطوة واحدة ولوّح برمحه فى الفضاء ، فاهتزّت على أثره ثمانية آلاف رمح ، وانطلق من ثمانية آلاف حنجرة صوتٌ واحد يُدَوّى بالسلام الملكىّ ويقول: « كوم » . وتكرّر ذلك ثلاث مرّات حتّى كادت الأرض تميد تحت أقدامنا .

ثم ساد صمت رهيب فالتفت « طوالا » إلينا وقال :

— « أيها الرجال البيض ! من أين جئتم وماذا تطلبون ؟ » فقلت :

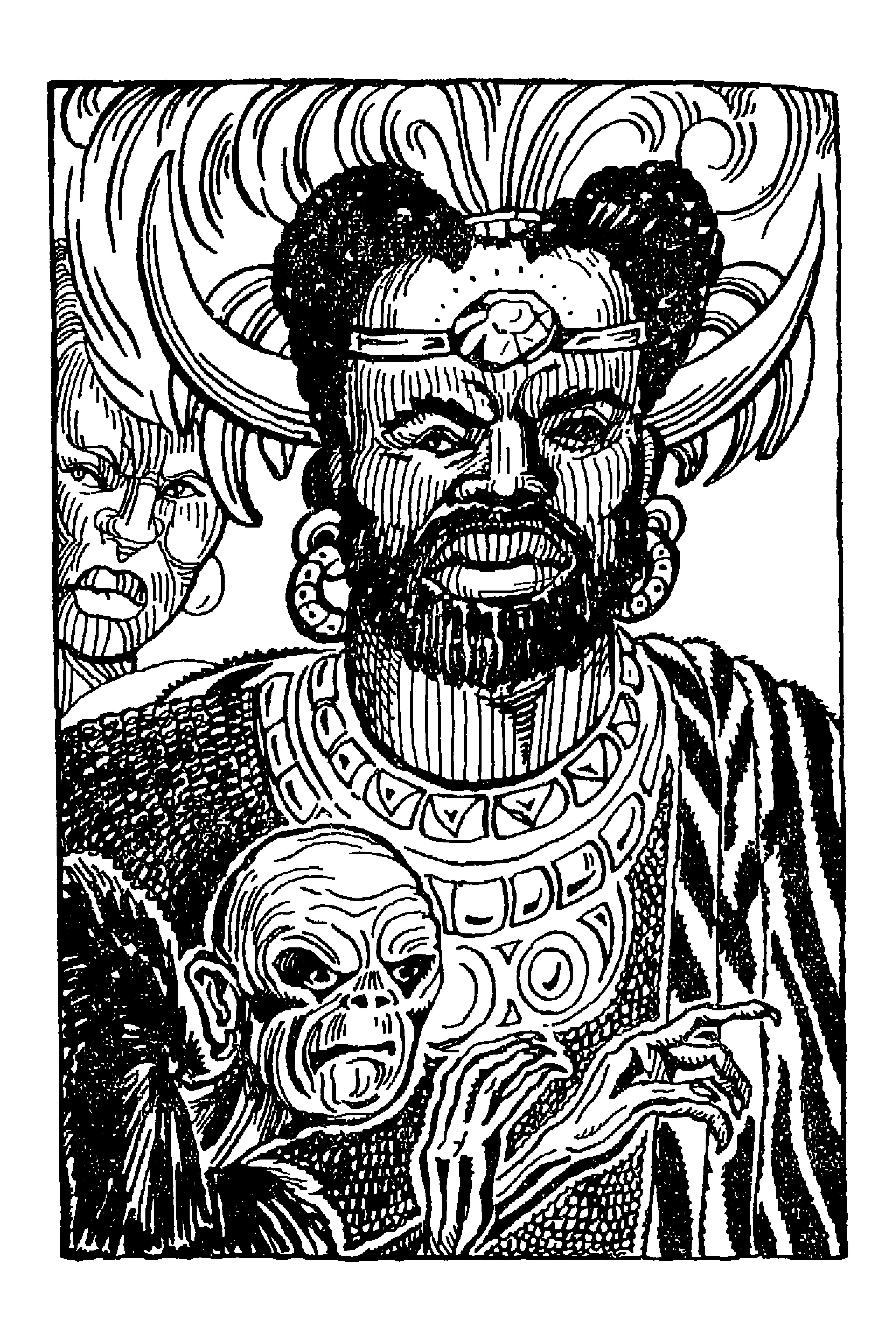
— « جئنا من النجوم فلا تسألنا كيف جئنا ، وغرضنا أن نزور بلادكم . » فقال :

— « وهذا الرجل الذى يصحبكم — وأشار إلى "أمبوبا" — أهو أيضاً من سكان النجوم ؟! » فقلت :

— « نعم ففى السماء رجال لونهم كلونك . . . ولكن لا تحاول يا "طوالا" معرفة أشياء هى فوق مستوى أفهام البشر ! » فقال :

— « إنكم يا رجال النجوم تتكلمون بجرأة بالغة ، فاذكروا أن النجوم بعيدة منكم وأنكم هنا على الأرض » ! فقلت :

— « كنْ حَذِراً أيها الملك فإن مددتَ يدك إلى شعرة من رؤوسنا



فأنت هالك . . . ماذا ؟ ألم يخبرك "إنفادو" و "سكراجا" أىّ رجال نحن ؟ ! ألم يخبراك أننا نلعب بالموت ونرمى به من نشاء على مسافة بعيدة ؟ ! » فقال :

— « أجل حدّثانى بذلك ولكننى لا أصدّق . . . فإن كنتم صادقين فاقتلوا رجلا من هؤلاء المصطفّين أمامكم ! » فقلت :

— « نحن لا نريق دم أحد إلا إذا رأيناه يستحقّ العقاب ، فإن شئت إلا أن تعرف مدى قوّتنا وسلطاننا ، فمُرْ خدمَك أن يجلبوا إلى هنا ثوراً عظيماً وأنا الكفيل أن أرْدِيَه قتيلاً قبل أن يخطو عشرين خطوةً فى هذه الساحة . . . »

فأمر « طوالا » بتنفيذ ما طلبت ، والتفتّ إلى « السير هنرى » وقلت له : « هذه نوبتك فلا أريد أن يظنّ هذا الوحش أنى بينكم الساحر الوحيد . »

وجىء بالثور وتُرِك فى الساحة فجَفَل وهمّ أن يولّى الأدبار ، ولكن رصاصة « السير هنرى » كانت قد أصابته إصابة قاتلة فانكفأ إلى الأرض ميتاً ، ودَوّت فى القوم همهمة دَهَشٍ وإعجاب ؛ ولمحت فى تلك اللحظة ذلك المخلوق الشبيه بالقرد ينزع عنه معْطَف الفراء ، ويقترب من الملك فإذا هو عجوز شمطاء متجعّدة الوجه ، منحنية الظهر كمن عمَّرَ دهراً طويلاً ، فلولا عيناها البرّاقتان لقلنا إنها جثّة جفّفتها الشمس .

مدّت تلك العجوز يداً كأنها مجموعة عظام تنتهى بأظافر حادّة

ووضعتها على كتف الملك وقالت بصوت أشبه بالصرير :

— « اسمع أيها الملك ! اسمع أيها الشعب ! اسمعى يا جبال ويا أنهار ! اسمعى يا شمس ويا مطر ويا عواصف! اسمعى ما أتنبأ به فإن سر الحياة والموت كامنٌ فىّ . . . دماء . . . دماء . . . ستجرى الدماء أنهاراً . . . أقدام . . . أقدام . . . ستطأ هذه الأرض قدم الرجل الأبيض . . . ستكثر الضحايا وستكون طعام الأسود والصقور . . .

إنى عجوز . . . رأيت كثيراً من الدماء وسأرى أكثر منها قبل أن أموت . . . عرفنى آباؤكم وأجدادكم وآباء أجدادكم . . . رأيت الرجل الأبيض وعرفت ماذا يبتغى . . . إن بغيته هناك (وأشارت إلى الجبال الثلاثة) . أما أنتم أيها الرجال البيض (وأشارت إلينا) فعمّ تبحثون ؟ أعنْ رفيق لكم مفقود ؟ إنكم لن تجدوه فمنذ زمن سحيق لم تطأ قدم رجل أبيض هذه البلاد . . . إلا واحداً فقط . . . ولكنه مات . . . أجئتم تبحثون عن الحجارة البراقة ؟ ! نعم جئتم من أجل ذلك ، ولكنكم لن تظفروا بشىء منها ما دام فينا رجال . . . فمصيركم الموت الزؤام . . . وأنت أيها الرجل الأسود الملتحف بالخُيلاء والكبرياء (وأشارت إلى "أمبوبا") من أنت ؟ وعمّ تبحث ؟ إنك لم تجىء من أجل الحجارة اللامعة أو المعدِن الأصفر . . . إنى أعرفك وأشمّ رائحة الدم الذى يجرى فى عروقك . . . اخلع ملابسك . . . »

وكأنما أتعبها ذلك الجهد الذى بذلته فى خطابها فسقطت لا تعى

والزَّبَد يتدفّق من شِدْقَيْها، فنقلوها إلى داخل الكوخ ونهض الملك ولوّح بيده فانصرفت الجموع ولم يبق إلا نحن والملك وبعض حاشيته فقال لنا:

— « أيها الرجال البيض ! نفسى تحدّثنى بقتلكم . . . فالعجوز "جاجول" قد فاهت بكلام غريب فما جوابكم عنه ؟ » فقهقهت ضاحكاً وقلت :

— « حذارِ أيها الملك ! فليس قتلنا أمراً سهلا . . . لقد رأيت ما حلّ بالثور أفتريد أن يكون مصيره مصيرك ؟ »

فقطّب الملك حاجبيه وقال :

— « اذهبوا بسلام . . . فالليلة تقام الحفلة السنوية الكبرى . . . وستشهدونها، وإنى أؤمنكم على أنفسكم حتى غدٍ وغداً أنظر فى أمركم ... »





٨

توارى الملك فى كوخه وقادنا « إنفادو » إلى الكوخ الذى أعِدَّ لنا فجلسنا فيه نحسب للعواقب ألف حساب .

وكان ما لمسناه فى « إنفادو » من رقة حاشية وطيب قلب ، قد حدانا على أن نأمن جانبه ونحدثه بكل صراحة واطمئنان فقلت له :

— « ما أقسى ملككم هذا يا "إنفادو" وما أفظعه ! » فقال :

— « صدقتَ يا سيدى إنه رجل غليظ الكَبِد قاسى القلب ، ويسوءنى أن أقول عنه هذا وهو أخى من أبى . » فقلت :

— « ولماذا لا يثور الشعب فى وجهه ويخلعه عن عرشه ؟ » فقال :

— «لو فعل هذا لتولى المُلْك بعده ابنه "سكراجا" فهو أغلظ كَبِداً

من أبيه . . . فلو لم يُقْتَل أخوه أو لو كان "إنيوزى" ابن أخيه حيا يرزق لتبدّلت الحال ولكنهما فى عداد الأموات ! »

فسُمع عندئذ صوتٌ ينبعث من ورائنا ويقول :

ـــ « وكيف عرفت أن "إنيوزى" فى عداد الأموات ؟ »

فالتفتنا مدهوشين إلى مصدر الصوت فإذا صاحبه « أمبوبا » فاستاء « إنفادو » من تدخل صاحب الصوت فى الحديث فزجره قائلا :

ـــ « ومن سمح لك بالكلام يا هذا ؟ » فقال « أمبوبا » :

ـــ « اسمع يا "إنفادو" القصة التى سأقصّها عليك : منذ سنوات عِدّة قُتِل ملككم "إيموتو" غدراً وفرّت زوجته بطفلها "إنيوزى" أليس كذلك ؟ » فقال :

ـــ « إنه لكذلك ! » فقال « أمبوبا » :

ـــ « وأذيع فى قبائل "الكوكوانا" أن الطفل وأمه هلكا فى تلك الجبال النائية . . . أليس صحيحاً ؟ » فقال :

ـــ « هذا صحيح . . . » فقال « أمبوبا » :

ـــ « والحقيقة أن الأم وطفلها لم يهلكا كما زعموا ، فقد اجتازا الجبال ونقلهما بعض الرُّحَّل عبر الصحراء حتى وصلا إلى حيث وجدا الماء والعشب والأشجار . . . واستمرّا أشهراً طويلة يتنقّلان من بلد إلى بلد ، حتى حلاّ فى قبائل الزولو فمكثا فيها سنوات ماتت الأمّ بعدها ، فتاه ابنها فى البلاد إلى أن استقرّ فى بلدٍ يسكنه الرجال البيض ، فخدمهم

وعاشرهم واقتبس منهم الفهم والحكمة . . . » فقال «إنفادو » :

— «إنها لقصّة شائقة فمن أخبرك بها ؟ » فاستمرّ «أمبوپا » يقول :

— « عاش "إنيوزى" خادماً ولكنه احتفظ فى قلبه بكلّ ما غرسته فيه أمه عن البلاد التى وُلِد فيها ، فكان يفكر دائماً فى الرجوع إلى بلاده ، ليرى شعبه ومنزل أبيه ، حتّى حانت الساعة فالتحق بجماعة من البيض كانوا يقصدون هذه البلاد ، فاجتاز معهم الصحراء وجبال الثلج للبحث عن رجل منهم فُقِد فى هذه الأصقاع . وها هم أولاء فى بلاد "الكوكوانا" يحدّثونك وتستمع لهم . . . » فقال « إنفادو » » :

— « هذا كلام لا يصدُر إلا عن مجنون . . . » فقال « أمبوپا » :

— « إنى كفيلٌ بإقناعك يا عمّى العزيز . . . انظر إلىّ » .

وخلع « أمبوپا» رداءه وقال :

— « أنا "إنيوزى" ملك "الكوكوانا" الشرعىّ . . . أتعرف يا "إنفادو" هذه العلامة ؟»

وأشار «أمبوپا» إلى وشم حول خصره يمثّل حيّةً تبتلع ذنبها ، فنظر « إنفادو» إليه بعينين زائغتين ثم خرّ ساجداً وهو يقول :

— « كوم ! . . كوم ! . . هذا ابن أخى . . . هذا هو الملك ...»

فأنهضه «أمبوپا » وقال :

— « لست الآن بالملك ولكننى أرجو بمعونتك ومعونة أصحابى البيض أن أستردّ عرشى . . . لقد كانت "جاجول" الساحرة صادقة فى كلامها

فلابدّ من أن تجرى الدماء أنهاراً، ولابدّ من أن يُراق دم هذه العجوز الخبيثة أولا فهى السبب فى قتل أبى وهرب أمى ، فهل ترضى يا عمى أن تضع يدك فى يدى ، وأن تعرض نفسك للأخطار المحيطة بى وتساعدنى على خلع هذا الطاغية ؟ »

فكّر « إنفادو » قليلا ثم اقترب من « أمبوبا » بل من « إنيوزى » ووضع يده فى يده وقال :

ـ « يا "إنيوزى" ملك "الكوكوانا" الشرعى ! هذا عهدى بأن أنصرك حتى الموت ! » فقال "إنيوزى" :

ـ « إذا انتصرتُ فستكون أول رجل فى المملكة بعدى ، وإن متُّ فبشّرْ نفسك بالهلاك ... وعلى كلّ حال فالموت ليس بعيداً منك فى ظلال هذا الطاغية . » ثم التفت إلينا فقال :

ـ « وأنتم أيها الرجال البيض هل أستطيع أن أعتمد على مساعدتكم ؟ ليس لدىّ كبير شىء أقدمه لكم سوى تلك الحجارة البرّاقة إذا ما انتصرنا وكشفنا عن مكانها . . . »

ترجمت مقاله فهبّ « السير هنرى » يقول :

ـ « سننصرك يا "إنيوزى" ما استطعنا ، لا طمعاً فى المال فنحن لا نبيع أنفسنا بالمال ، وإنما حبًّا لك فإنك رجل جدير بمحبة الرجال ، ثم لا تنس أننا جئنا إلى هذه البلاد للبحث عن شقيقى ، فلعلك تهتم بالأمر وتبذل فيه قصىّ الجهد . . . » فقال « إنيوزى » :

ــ « حبًّا وكرامة . . . » ووجه خطابه إلى « إنفادو » وقال :
ــ « أجبنى يا عمى بحقّ وشم الحيّة الذى يطوّق خصرى ، أتعلم شيئاً عن رجل أبيض هبط هذه البلاد ؟ » فقال « إنفادو » :
ــ « كلا يا "إنيوزى" فلو رؤى رجل أبيض فى هذه الديار ، أو أذيع خبر عنه لبلغنى ذلك حتما . » فقال «إنيوزى » موجّهاً الخطاب إلى « السير هنرى » :
ــ « لم يصل شقيقك إلى هنا يا سيّدى ! » فقال « السير هنرى » :
ــ « إذن مات فى الطريق . . . وارحمتاه له ! »
وبعد دقائق قليلة خشعنا فيها إجلالا لحزن « السير هنرى » ، ما وسعنى إلا أن أخاطب « إنيوزى » وأقول له :
ــ « جميلٌ أن تكون ملكاً بحقّ الوراثة أو بمقتضى الشريعة الإلهية ، ولكن ما خطّتك لاسترداد عرشك ؟» فقال « إنيوزى » :
ــ « لم أفكر فى خطّة من الخطط بعدُ . . . فماذا تقول يا عماه ! »
ــ « سأجتهد هذه الليلة فى أن أستميل بعض الزعماء بحيث يكون لديك فى صباح غدٍ عشرون ألف رمح تحت إمرتك . . . فإذا انقضت الليلة وكنت لا أزال من الأحياء ، جئت إليك هنا وتحدّثنا فى الأمر . . . والآن علىّ أن أذهب لأرقُب الحوادث . . . »
وشهدنا فى تلك الليلة الحفلة الكبرى فكانت مما تقشعرّ له الأبدان فضلا عما تثيره فى النفوس من هلع واضطراب .

كانت الساحة مملوءة بالمحاربين الشاكي السلاح ، انتظموا فيها صفوفاً بعد صفوف . وكان إلى جانب الملك منصّة وقف عليها نفرٌ من الجلاّدين بسكاكينهم المشحوذة ، وكان إلى الجانب الآخر من عرش الملك زُمْرَة من العجائز تتزعّمهن العجوز «جاجول» فكنّ بين الفَيْنة والفينة ينزلن إلى الساحة ، وفي يد كلّ واحدة منهنّ عصاً رفيعة ، ويجُلْن في الصفوف باحثات عن السِّحْر الخبيث ، فإذا لمست إحداهن بعصاها رجلاً من الرجال ، حمله زميلاه الواقفان إلى يمينه ويساره ، وسارا به إلى المنصّة . فيشير الملك إشارة بيده ، وتتبعه « جاجول » قائلة : «يُقتل» فيُطيح أحد الجلاّدين رأسه بأقل من تردّد الطرف ، وهكذا عددنا مئة وثلاثة رجال ضُرِبت أعناقهم في تلك الليلة الرهيبة ، تطهيراً للجيش من رِجْس السِّحر كما يزعمون ، والواقع أنها فرصة يتخلص فيها الملك من المتمرّدين عليه أو من أصحاب الشّوْكة والنفوذ .

وقبل أن يأمر الملك باختتام الحفلة ، نزلت العجوز « جاجول » إلى الساحة وعصاها الرفيعة في يدها ، واجتازت صفوف الرجال بظهرها المنحني ثم رجعت إلى حيث كنّا نجلس ، ومست بعصاها رفيقنا « أمبوپا » أو « إنيوزي » كما يجدر أن نسميه بعد الآن ، وقالت بصوتها المنكر :

— « إن دمك خبيث أيها السّاحر اللعين ، ويجب أن تُقْتَل لنُنقِذ البلاد من شرورك وآثامك ! »



فطار صوابنا ، ونظرت إلى « إنيوزى » فإذا هو قد انتفض واقفاً وسدّد رمحه شأن الرجل الذى يريد أن يدافع عن نفسه ، ولا يبيع دمه بيعاً رخيصاً . وتدخلنا فى الأمر وما زلنا بالملك حتى رضىَ أن يحقِنَ دم « أمبوپا » لا خوفاً كما زعم من أنابيبنا السحرية التى صوّبناها إليه ، وإنما نزولا عند تقاليد الضيافة التى طالبناه بتوقيرها .

وبإشارة رمح من الملك انفض السّامر ، وعُدْنا إلى كوخنا ونحن فى غمرة من الذهول والاضطراب .

وفى الهزيع الأخير من الليل ، قَدِم علينا « إنفادو » ومعه ستة من الزعماء ، وكلهم جبّار عنيد يأمر وينهى فى ثلاثة آلاف رجل هم طوع بنانه ، فقصَّ عليهم « إنيوزى » قصتّه ، ثم خلع ملابسه ليريهم فى ضوء الذبالة المتراقصة وَشْمَ الحيّة حول خصره ، فاقتربوا منه واحداً واحداً ناظرين فاحصين ، فلما فرغوا من التدقيق والتحقيق قال لهم « إنفادو » :

— « علامَ عوّلتم أيها الزعماء ؟ أتساعدون هذا الفتى على استرجاع عرشه أم تُحْجِمون ؟ » فقال كبيرهم :

— « إذا كان هذا الفتى هو الملك الشرعى حقّاً فليشهد بذلك الرجال البيض ، ولْيُبرِزوا لنا دليلا منظوراً يراه جميع الناس حتى ينضموا إلينا معتمدين على أننا مؤيدون بسحر الرجال البيض . » فقلت :

— « ألا يكفى وشم الحية أيها السيّد ؟ » فقال :

— « كلا لا يكفى . . . فقد يكون وُشِم به منذ الصِّغَر . . . »

فترجمت لزميلي مقالة الرجل فأسقط في أيدينا ، وما لبث « جود » أن وثب قائماً وهو يصيح : « عندى الدليل . . . عندى الدليل . . . اطلب منهم أن يمهلونا قليلا . »

فخرج الرجال من الكوخ يستنشقون نسمات الفجر ، وعمد « جود » إلى حقيبة الصيدلة وأخرج منها « نتيجة أو رزنامة » وقال :

— « ألسنا فى صباح اليوم الرابع من يونيو ؟ ألم نحرص على هذه الرزنامة لنعرف أين نحن من الأشهر والأيام ؟ » فقلنا له :

— « أجل ! وماذا بعد ؟» فقال :

— « اقرؤوا ما هو مكتوب فى الرزنامة · "يخسف القمر خسوفاً تامًّا ابتداء من الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة بتوقيت جرنوتش ، ويرى الخسوف فى إفريقيا الجنوبية . . إلخ" فهذا هو الدليل المطلوب فقل لهم يا عزيزى "كاترمان" إننا سنطفئ نور القمر فى هذه الليلة . » فقال « السير هنرى » :

— « وماذا تقول لو كانت الرزنامة مخطئة ؟ إننا سنجرّ أذيال الخيبة ، وسيفقد "إنيوزى" الأمل فى استرجاع عرشه . » فقال « جود » :

— « لاحظت أن الرزنامة كانت دائماً صادقة فلماذا تريد أن تكون مخطئة فى هذه المرة . . . إن الخسوف سيبتدئ هنا هذه الليلة فى الساعة العاشرة ويستمرّ ساعتين ونصف ساعة وسيكون الظلام شاملا مدة ثلاثين دقيقة . » فقال « السير هنرى » :

— « أرى أن نجازف فما فى اليد حيلة . »

فوافقت أنا أيضاً على المجازفة وطلبت إلى « إنيوزى » أن يدعو الزعماء فأقبلوا فخاطبتهم قائلا :

— « يا زعماء "الكوكوانا" وأنت يا " إنفادو " اسمعوا ما أقول : نحن قوم لا نريد أن نقيم الدليل على قوّتنا وسلطاننا ، فنى ذلك تعويق لمجرى الطبيعة ومدعاة إلى خوف الناس ورعبهم . ولكن والمسألة على جانب من القدر الخطير فضلاً عن أننا ساخطون على "جاجول" التى أرادت أن تهلك صديقنا "إنيوزى" فقد قرّرنا أن نستجيب إلى رغبتكم ، ونبرز لكم دليلا يراه جميع الناس . . . » وقمت إلى النافذة ففتحتها وقلت لهم :

— « أترون هذا القمر الذى يوشك أن يغيب ؟ » فقالوا : « نعم نراه » فقلت :

— « أيستطيع مخلوقٌ أن يطفئ نور هذا القمر قبل الساعة التى يغيب فيها ؟ » فقال كبيرهم :

— « طبعاً لا فالقمر أقوى من كل مخلوق ! » فقلت :

— « إذن سنطفئ الليلة نور القمر ! »

ففغَر الزعماء أفواههم مشدوهين وقال « إنفادو » :

— « حسن أيها السادة ! فنى هذه الليلة تقام الحفلة الثانية وهى حفلةٌ راقصة ، وسيدعوكم "طوالا" لشهودها ، وستبتدئ بعد غروب الشمس بساعتين . والغرض من هذه الحفلة التى سيرقص فيها سِربٌ من

الفتيات الجميلات هو اختيار أجملهن ، والملك هو الحكَم فى ذلك ، وسيقدّم الفتاة التى يقع عليها اختياره إلى ابنه "سكراجا" ليقتلها ويجعل منها قُرْباناً للجبال الثلاثة القائمة وراء طريق سليمان . . . فعليكم أيها السادة إذن عندما يحين هلاك تلك الفتاة المنكودة ، ولن يتأخّر ذلك عن ساعة واحدة من ابتداء الحفلة ، أن تطفئوا نور القمر ، وتنقذوا حياة الفتاة ، وتكسبوا ثقة الشعب الذى سينظر إلى عملكم الباهر نظرة إكبار وإعجاب . . .

وسكت « إنفادو » قليلا ثم استأنف حديثه وقال : -

— « وعلى بعد ميلين من هنا عند التلّ الشبيه بالهلال ، سينتظركم زملائى على رأس كتائبهم ، وأرجو أن أتمكّن من أن نضمّ إلينا كتائب أخرى ، فإذا أخمدتم نور القمر قمت أنا فى حلَك الظلام وقُدْتكم إلى ذلك التلّ حيث تكونون فيه آمنين مطمئنين ، ثم نُعلنها حرباً شعواء على "طوالا" الطاغية ! » فقلت :

— « نِعْمَ الرأى رأيك يا سيّدى ! فإلى هذا المساء . . . »

فانصرف « إنفادو » وصحابه وكنا نحن على جانب كبير من التعب والنعاس ، فنمنا نوماً عميقاً حتّى الظهر ، ثم نهضنا وتناولنا طعام الغداء وخرجنا بعد ذلك نطوف فى الأحياء ، ويكدّر علينا صفو نزهتنا شىء غير قليل من القلق ، بعثه فى نفوسنا الشكّ فى صحة الحساب عن خسوف القمر .

وعُدنا إلى الكوخ فى حوالى الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين ، فجاءنا بعد قليل رسول الملك يدعونا لشهود حفلة رقص تقوم بها أجمل فتيات

القبيلة ، ويطلب إلينا التعجيل فى الذهاب فالحفلة توشك أن تبتدئ .

فعَمَدنا إلى أسلحتنا فحملناها معاً استعداداً للطوارئ عند الهرب ، وسرنا إلى الحفلة بقدم ثابتة وقلب مضطرب .

وصلنا إلى مكان الحفلة فما وجدناه يموج بالجيوش كالليلة السابقة ، ولم يكن المدعوون إلا بطانة الملك وفريقاً من الكبراء والزعماء وقادة الجيوش يتوسطهم الملك « طوالا » وقد جلستْ تحت قدميه العجوز « جاجول » .

ورأينا على مقربة من هؤلاء الناس ، جماعات من الفتيات عقدن حول رؤوسهن أكاليل من الزهر ، وحملن باليد اليمنى غصن نخيل ، وباليسرى زنبقة بيضاء. فلماوصلناإلى مكان الحفل استقبلنا«طوالا » استقبالاً جميلا ، ولكنه كله تصنّع وتكلّف فلاحظت أنه يطيل التحديق بعينه الوحيدة فى « أمبو پا » .

وما هى إلا دقائق قليلة حتّى أمر ببدء الرقص ، فاندفعت الفتيات ينشدن الأناشيد ويلوّحن بغصون النخيل والزنابق البيض، ثم توقّفن وتقدمت واحدة منهن وأخذت ترقص وحدها رقصاً جميلا بديعاً، حتّى إذا انتهت منه عادت إلى زميلاتها وأعقبتها أخرى فى رقصة منفردة وهكذا دواليك حتّى أتمت كل واحدة منهن رقصتها الخاصة ، فرفع الملك عندئذ رمحه وسألنى :

— «مَنْ هى أجملهن فى نظرك أيها الرجل الأبيض ؟ »فقلت:

— « الأولى أيها الملك ! »

ولشدّ ما ندمت على تسرعى فى الجواب ، فقد تذكّرتُ أن من



عادات القوم اختيار أجمل فتاة فى تلك الحفلة لتكون الضحية المرتقبة ، وازددت ندماً وحزناً عندما سمعت « طوالا » يقول للحراس :

— « هاتوها إلى هنا ، وأنت يا "سكراجا" اشحذ سنان رمحك ! » .

فأدركت الفتاة أىّ مصير ينتظرها ، فأخذت تصيح وتولول وهمّت بالهرب ، فتلقفها حارسان قويّان وأتيا بها إلى الملك وهى تنشج وتنتحب ، وتقدم «سكراجا» فى تلك اللحظة رافعاً رمحه وأمارات التّوحّش والفظاظة تبدو على وجهه ، فرأيت « جود» قد مدّ يده إلى مسدّسه ، ولمحت الفتاة منه ذلك فأحسّت بأن لها نصيراً فى ذلك الحشد الرهيب ، فجرت إليه وانطرحت على قدميه وهى تقول :

— « يا سيّدى الأبيض ! يا أبا النجوم ! احمنى وادفعْ عنى وخلّصنى من هؤلاء الرجال العُتاة الغلاظ ومن "جاجول" . . . » فقال « جود» :

— «اطمئنّى بالاً أيتها الجميلة ... سأعمل على أن أجنّبك الأذى ...»

وانحنى «جود » لينهض الفتاة فأشار « طوالا » إلى ابنه إشارة خاصة، فتقدّم والرمح مرفوعة فى يده فهمس « السير هنرى » فى أذنى قائلاً :

— « لقد حانت الساعة فماذا تنتظر ؟ » فقلت :

— « وحقّ الأبالسة إنى أنتظر الخسوف فها أنا ذا منذ نصف ساعة لا أرفع عينى عن القمر فلا أراه إلا منيراً زاهراً . . . » فقال :

— « لنقدم وليكن ما يكون . . . ألا ترى "طوالا" قد نفد صبره ؟ فلو انتظرنا لذهبتْ هذه الفتاة المسكينة ضحيّة هؤلاء الوحوش ! »

فنهضت وأنا ألقى نظرة أخيرة على القمر لعله يصفرّ وينخسف ،

ووقفت بين الفتاة ورمح « سكراجا » وخفّ إلى جانبي « السير هنرى » و « أمبوپا » وصوّبا بندقيّتيهما ، فصحْت فى « سكراجا » قائلا :

ــ «على رِسْلِكَ أيها الرجل... قِفْ وإياك أن تمدّ يدك إلى هذه الفتاة ! فقد قرّرنا نحن الرجال البيض أن لا تموت هذه المسكينة ، فإذا خطوت خطوة واحدة إليها فسوف نطفئ القمر ونُغْرِق البلاد فى الظلمات وسترون عندئذ مبلغ قوة سحرنا !» .

فعل تهديدى فعله فوقف «سكراجا» جامداً لا يتحرّك فقالت «جاجول » :

ــ « اسمعوا ماذا يقول هذا الدجّال الذى يتبجّح بأن يطفئ القمر كأن القمر مصباح صغير فى يده . . . فليطفئه وله منا الوعد بأن نبقىَ على الفتاة . . . أجل ليطفئْه أو يمتْ هو والفتاة وصحبه . . . »

فرفعت بصرى إلى القمر ، وأترك لكم تقدير ما خالجنى من الفرح والارتياح ، لما رأيت ظلاً خفيفاً قد بدأ يرتسم على وجهه المنير ، فرفعت يدى إلى السماء بحركة عظيمة ، وحذا حذوى « السير هنرى » و « جود » وأخذنا أنا و « السير هنرى » نتلو ما نحفظه عن ظهر قلب من أشعار ، أما « جود » فاكتفى بتلاوة عدد من الشتائم والسباب .

ودبّ الذعر فى نفوس القوم لما رأوا القمر قد بدأ يتناقص فقلت :

ــ « انظر أيها الملك ! انظرى يا "جاجول" ؛ انظروا يا ناس وقولوا لقد نفّذ الرجال البيض وعيدهم فما هم بدجّالين ! . . ها هو ذا القمر ينطفئ نوره رويداً رويداً أمام أعينكم ... فعمّا قليل ستغرقون فى

ظلام دامس . . . وسيعلم الطّغاة أىّ منقلَب ينقلبون ! »

ووقع كلامى فى قلوب القوم موقعه ، فتملّكهم الرعب وجمدوا فى أمكنتهم كأنهم سمّروا فيها وفى طليعتهم الملك « طوالا » وبقوا على هذه الحال من الرعب لا يبدون حراكاً ولا ينبسون ببنت شفة ، والقمر آخذ فى النقصان ، والظلام ينشر ذيوله حتى صاح أخيراً « سكراجا » :

— « لقد قتل السَّحَرة القمر ... إننا سنموت جميعاً فى الظلام الحالك! »

وكأنما أخذته سورة الخوف أو الغضب فرفع رمحه وهجم به على « السير هنرى » فتجنّب هذا الطعنة ثم أطبق بسرعة البرق على « سكراجا » فجرّده من الرمح وأغمده فى صدره فوقع إلى الأرض يتلوّى من الألم ويلفظ أنفاسه الأخيرة .

وكان الظلام يزداد انتشاراً فلم يسَع القوم إلا أن ينادوا بالويل والثبور ، ويولّوا الأدبار هاربين ، ويجروا إلى أكواخهم يختبئون فيها حتى لم يبق فى تلك الساحة إلا نحن الأربعة والفتاة التى نجت من الميتة الفظيعة و « إنفادو » وبعض الزعماء الذين زارونا معه فى فجر هذا اليوم فقلت لهم :

— « أيها الزعماء ! لقد أعطيناكم الدليل الذى تطلبون ... فلنغتنمْ فرصة الظلام ولنبتعدْ عن هذا المكان. » فقال « إنفادوا » : « تعالوا ! »

وسار فى مقدّمتنا وتبعناه متساندين لأن القمر كان قد خسف كل الخسوف . ومشت الفتاة واسمها « فولاتا » إلى جانب « جود » كأنها تحتمى به فقد شعرت بأنه كان أول من فكر فى إنقاذها . . .



٩

كان « إنفادو » وزملاؤه يعرفون الطُّرُق والدروب تمام المعرفة فقادونا إلى حيث يريدون ، وعندما بدأ القمر يخرج من خسوفه ويعود إليه الضياء شيئاً فشيئاً عرفنا فى ضوء نوره الباهت أننا ابتعدنا عن المدينة ، ووصلنا إلى تلّ كبير تُحيط به سلسلة من التلال الأخرى.

ولقد بلغ منا السرور مبلغه لما رأينا تلك البقعة تموج بالجنود المدجّجين بالسّلاح ، فقد اجتمع فيها ما يزيد على عشرين ألف مقاتل .

وعندما لاح الفجر وقف « إنفادو » يخطب فى الجموع المحتشدة ويقصّ عليهم قصّة والد « إنيوزى » وكيف أن الملك « طوالا » قد اغتاله غدراً وعدواناً ، وكيف فرّت زوجة القتيل بابنها ، ويصف لهم ما لاقته من

أهوال وأخطار ، وما تعرّضت له من جوع وعطش . ثم أخذ يُثير حفائظهم على الملك « طوالا » ويذكر ما تعانيه البلاد من ظلمه وقسوته ، وقال بعد ذلك إن الرجال البيض قد أرسلتهم النجوم ليعيدوا العرش إلى صاحبه الأصيل الشابّ « إنيوزى » الذى أتوْا به مَن مطارح الغربة والنفى . . . فقابلت الجموع خطابه بدمدمة طويلة تقدّم بعدها « إنيوزى » وتكلم مؤمّناً على كلام عمّه « إنفادو » وختم كلامه قائلا :

— « أيها الزعماء والجنود لقد سمعتم كلامى فعليكم الآن أن تختاروا بينى وبين الجالس على عرشى عمّى الذى قتل أخاه وشرّد زوجته وابنه . . . أنا ملككم . . . فمن اليوم الذى أتسنّم فيه عرش آبائى سأحقن الدماء وسيتمتّع كل منكم بالأمن والطمأنينة والعدالة فمن تختارون ؟ ! »

فأجابوا كلهم بصوت واحد :

— « نختارك أنت أيها الملك ! »

ثم رفع أحد الزعماء يده فانطلقت الخناجر تنشد مدّويةً : « كوم كوم » وكان هذا هو السلام الملكى إيذاناً منهم بأنهم ارتضوه ملكاً عليهم ، فقال لهم :

— « كونوا إذن على استعداد لردّ كيد الغاصب فى نَحْره . . . إنه سيهاجمنا عما قليل ولكننا سننتصر عليه وعلى رجاله لأنكم تدافعون عن الحق والعدالة . »

وعقدنا نحن بعد ذلك مجلساً حربيًّا اشترك فيه القوّاد والزعماء ،

وانتهينا منه إلى إعداد العدّة ، والقيام بالتحصينات اللازمة ، وتوزيع الفرق والكتائب على ساحة القتال ، وانتظرنا هجوم « طوالا » علينا بجيوشه وجنوده.

ولم يَطُلْ انتظارنا فقد ترامت إلينا الأنباء بأن « طوالا » قد جمع جموعه وأنه قد تحرّك بها إلى قتالنا ، واستطعنا بعد قليل أن نرى من التلال التى كنا عليها أن « طوالا » يزحف إلينا فى جيوش ثلاثة لا يدرك الطرف آخرها ، وقد اتجه أولها إلى يميننا ، والثانى إلى يسارنا ، فى حين زحف الثالث إلينا فصاح « إنفادو » :

– « إنهم يريدون قتالنا من ثلاث جهات معاً ! »

وكان الجيش الزاحف فى الوسط قد أصبح منا على مسافة قريبة يتقدّمه قائدٌ من قوّاده ، فلما تأكدت أنى مستطيع أن أصيب ذلك القائد برصاص بندقيتى ، انطرحت أرضاً وصوّبتها إليه تصويباً مُحْكَماً ، وضغطت على الزّناد ، فلم تنقضِ ثوانٍ معدودات حتى انكفأ الرجل على الأرض متمرّغاً فى التراب ، فتعالى هتافُ رجالنا ورأوْا فى ذلك الحادث بشير خيرٍ ونصر ، وازدادوا ثقةً بسحر الرجال البيض ، ولا سيما عندما شاهدوا جنود القائد المقتول قد دبّ الذّعر فى صفوفهم فتراجعوا فى فوضى واضطراب ، وأتبعناهم ببعض الطلقات فقتلنا منهم عشرة آخرين أو يزيد.

ولكنهم سرعان ما عادوا إلى الهجوم لما رأوا جيش اليمين وجيش اليسار قد التحما بجيوشنا ، فجدّوا فى السير إلينا مصعّدين فى التلال ، وكاسحين الحاميات التى كنا نثرناها فى السفوح وفيما بعدها ، فحصدنا منهم

برصاصنا ما استطعنا فما ازدادوا إلا هياجاً وتقدماً وهم يصيحون :

— « "طوالا . . . طوالا . . . شيالا . . . شيالا" أى "طوالا . . . طوالا . . . اضرب . . . اضرب . . ."» فيجيبهم رجالنا :

— « "إنيوزى . . . إنيوزى . . . شيالا . . . شيالا" أى "إنيوزى . إنيوزى . . . اضرب . . . اضرب . . ."»

وحُمّ القضاء ونشبت المعركة ، فاشتبكت الرّماح ، وتساقطت القتلى ، وكثر الطعن والضرب . وبقى المتقاتلون فى كرّ وفرّ لا يُعْرَف لمن فيهم يُعْقَد النصر . وكان «السير هنرى» حتى تلك اللحظة مكتفياً بالنظر والمشاهدة فدخل غمار المعركة يتبعه « جود » فما إنْ لاحت قامته الجبّارة وسط المتحاربين حتى سُمع دوىٌّ واحدٌ يقول ما معناه :

— « هذا هو الفيل ! . . . هذا هو الفيل ! . . . »

فحمل « السير هنرى » حملاتٍ شعواء وهو يضرب يميناً وشمالا ضربات قاتلة ، فبثّ الثقة فى نفوسٍ رجالنا ، فأخذتهم لوثة من جنون القتال ، فدحروا الأعداء ورأوهم يتراجعون بغير انتظام . . .

وكانت الأنباء قد جاءتنا بأن مَيْسَرتنا قد تمكّنت من العدُوّ وألحقت به خسارة فادحة ، فسررنا واستبشرنا ، ولكن أسْقِط فى أيدينا عندما رأينا ميمنتنا قد اخترق العدوّ صفوفها فتقهقرت منكسرة . وكان « إنيوزى » إلى جانبى فأسرع يعالج الأمر ويبث الحماسة فى النفوس ، فلقِيَتْ أوامره آذاناً صاغية ، وحمل رجاله على العدوّ حملة منكرة فتخاذل وانطوى على

نفسه مهزوماً . وهكذا كسبنا المعركة الأولى واغتبطنا إذ رأينا العدوّ يرجع من حيث أتى . وكان الوقت ظهراً فأخلد رجالنا إلى الراحة وإلى تناول الطعام مهلّلين مفتخرين . وعاد « إنيوزى » إلينا وقال :

— « لا يغرّنّكم تقهقر العدوّ فإنه عائد إلينا لا محالة بقوات أكبر وأضخم ، ولقد قررت أن أضرب "طوالا" فى هذا اليوم الضربة القاصمة قبل أن يعمد إلى تنظيم صفوفه ، وبهذا ينجلى مصيرى ومصيركم معى . »

وعرض علينا « إنيوزى» خطّته الحربية فوافقنا عليها ، وكان قوامها أن تقف ميمنة الجيش وميسرته فى موقف الدفاع . وأن ينزل قلب الجيش من التلال إلى السهل ويهاجم « طوالا » فى معسكره .

وبلّغت الخطّة إلى جميع القواد والزعماء فأخذوا يستعدّون لتنفيذها . ومشى كلٌّ منهم إلى كتيبته ليقضى فيها ما هو قاض ، ونهض « جود » فسلّم علىّ وعلى «السير هنرى» مودّعاً وذهب ليحتلّ مكانه فى الميسرة . وبعد دقائق قليلة سار « السير هنرى » لينضمّ إلى الكتيبة التى اختير لها فى جيش « إنفادو » . وماهى إلا ساعة من الزمان حتى تحركت الجيوش ، ومشت إلى غايتها ، وسُمِع لها ولأناشيد رجالها دوىٌّ هزّ الجبال وأرجاء البوادى وبلغ عنان السماء ، ثم خفَتَ رويداً رويداً بابتعاد المحاربين عن قواعدهم وأعقبه صمت رهيب .

وكان نصيبى أنا أن أنضمّ إلى الكتيبة التى تزعمها « إنيوزى» فتحرّكت هذه أيضاً إلى القتال ، وتحرّكتُ معها وأنا أدعو الله أن يهب لى الحياة

ويخرجنى سالماً من هذه المعارك الدامية .

نزلت كتائبنا إلى ساحة القتال فقابلتها كتائب « طوالا » واشتبكت معها فى صراع عنيف ، وكنت على البُعْد ألمح « السير هنرى » يروح ويجىء بين الصفوف ، ويهوى بفأسه على رؤوس الأعداء فيحطّمها تحطيماً . وكان من براعة خطتنا أن يعمد رجالنا دائماً إلى قمم التلال فيسدّوا الدروب الموصّلة إليها ، ويُنْزِلوا بكلّ من يقتحمها الموت الزؤام . ويمكنكم أن تتحدّثوا عن فرحى وفرح « إنيوزى » لما شاهدنا جيش « إنفادو » وعلى رأسه « السير هنرى » يقهر العدو ويضطرّه إلى التقهقر والفرار ، ولكن بثمن فادح فقد سقط من رجاله فى المعركة عدد كبير .

وسرْعان ما انقلب فرحنا إلى جزع وخوف ، فقد عاود العدوّ الكرّة وعلى رأسه « طوالا » نفسه فأيقنّا أن فلول جيش « إنفادو » هالكة لا محالة فسمعت « إنيوزى » يقول لى :

— « لن نترك فلولنا تدور الدائرة عليها . . . فهيّا إلى معاونتها . . . »

وأصدر أمره إلى جيشه فطار يسابق الريح إلى نُصْرة إخوانه ووجدتُنى بعد قليل وراء « السير هنرى » أبْلِى معه البلاء الذى أستطيعه فى الضرب والطعن . وفجأة سمعنا صوتاً يقول :

— « أين أنت أيها الرجل الأبيض الذى قتل ولدى "سكراجا" ! »

وكان صوت « طوالا » فقد هجم هجوم الوحش الضّارى على « السير هنرى » وقبل أن يصل إليه رماه بسهم تلقّاه بطلنا بتُرْسه فطاش وخاب ،

وهمّ «طوالا» أن يتبعه بسهم آخر ولكنه توقّف على حين غِرّة ، بل رأيناه يدور على عَقِبَيْه ويطلق ساقيه للريح عائداً من حيث جاء يلحقه فى فراره جنده وحرسه .

وبينا نحن نمتّع الطرف بهذا النصر الباهر ، وبرؤية فلول « طوالا » تهرُب جارية كالثعالب ، وتطاردها كتائبنا بشجاعة وحماسة ، قرّر « إنيوزى » أن يزحف قلب الجيش أيضاً إلى عاصمة « طوالا » فيأسره ويستعيد منه العرش المغصوب ، ويُنهى القتال . فمشى ومشينا معه وسار الجيش بِرُمَّته إلى احتلال العاصمة، ولم نكد نسير مدة نصف ساعة حتى لمحنا على بعد قريب منا صديقنا « جود» مرتمياً فوق تلّ من التلال كأنه جثّة هامدة، فسارعنا إليه وسرّنا أن نراه حيًّا يُرزَق، ولكنه كان مصاباً بجرح بالغ فى ساقه، فضمّدنا جرحه وأضجعناه على تُرْس عريض ونقلناه معنا .

ولما وصلنا إلى باب العاصمة رأينا إحدى حامياتنا تحرسه ، فحيّت « إنيوزى » بتحية الملك ، وتقدّم القائد وأبلغ « إنيوزى » أن جميع الأبواب تحرسها رجالنا ، وأن « طوالا » وبعض فلول جيشه موجودون فى داخل المدينة وهم فى تخاذل ظاهر ومستعدّون للتسليم .

وللحال أصدر « إنيوزى» أوامره ، وبعث المنادين يَعِدُون الناس بالصفح والعفو والحياة . ودخلنا المدينة دخول الظافرين بين صفّين من جنود «طوالا» كانت رؤوسهم منكّسة وأسلحتهم مرميّة إلى الأرض ،

ووصلنا إلى كوخ « طوالا » ومررنا بتلك الساحة التى كانت فى الليلة الأخيرة مسرحاً للحفلة الفظيعة . فإذا الكوخ قَفْرٌ لاحرسَ فيه ولاجنود ، وإذا « طوالا » قد جلس فى زاوية من زواياه وليس معه إلا العجوز « جاجول » وقد حنى رأسه وأسند ذقنه إلى صدره ، وعلى بُعْدٍ منه تُرْسه وفأسه ورمحه : فأثَّر فى نفسى منظر هذا الملك المخلوع مع كل ما ارتكبه من جرائم وآثام .

اقتربنا منه فاستقبلتنا العجوز « جاجول » بسلسلة من الشتائم ، فرفع هو رأسه وحدّق طويلا فى « إنيوزى » بعينه اليتيمة وقد أشعل فيها الغضب بريقاً يشبه بريق الألماسة التى فى جبينه وقال يخاطب « إنيوزى » بلهجة كئيبة مرة :

— « السلام عليك أيها الملك . . . أنت يا من أكلت من خبزى واعتمدت على سحر الرجل الأبيض فقهرت جيوشى وكسرت كتائبى . . . أى مصير تدّخره لى أيها الملك ؟ ! » فقال « إنيوزى » :

— « المصير الذى ادّخرته لوالدى الذى اغتصبت عرشه سنوات طويلة ! » فقال « طوالا » :

— « حسناً سأريك كيف يموت الرجال لتستفيد من ذلك وتتأثّرنى يوم تحين ساعتك ... انظر إلى الشمس التى ستغرُب فى بُقْعة من الدم (وأشار بيده إلى الشمس المائلة إلى المغيب) فمن العدل أن تغرُب شمسى معها ، فإنى أيها الملك مستعدٌّ للموت ، ولست أطلب إلا الامتياز المقرر

لأسرة "كوكوانا" المالكة وهو أن أموت فى قتال شريف ، ولا يمكنك أن ترفض لى هذا المطلب دون أن يلحق بك العار حتّى فى أعين الخونة الذين لاذوا بالفرار فى هذا اليوم ! » فقال « إنيوزى » :

– « طلبك مجاب فاخترْ خصمك ! أما أنا فلا أستطيع أن أقاتلك لأنك تعلم أن الملك لا يقاتل إلا فى الحروب ! »

فسكت « طوالا » هنيهة ثم قال يخاطب « السير هنرى » :

– «ماذا تقول أيها الرجل الأبيض ؟ أتريد أن نتمّم ما بدأناه منذ قليل ؟ أو أنك تؤْثرأن أدمغك بالجبن والخوف وأن أقول عنك إنك أبيض حتى فى كَبِدك ! » فقال « إنيوزى » :

– « كلا ! إنك لن تتبارز مع الرجل الأبيض ! » فقال « طوالا » :

– « طبعاً لن أبارزه إذا كان خائفاً ! »

وفهم « السير هنرى » معنى هذه الجملة الأخيرة فصعد الدم إلى وجهه وقال :

– « سأبارزه وسأريه أنى لا أعرف الخوف ! »

فضحك «طوالا» ضحكةً وحشيّة ، ونهض فاقترب من « السير هنرى» وبقى الرجلان لحظات قليلة يصعّد كلٌّ منهما نظره فى الآخر ثم حملا فأسيهما وخرجا إلى الساحة فتبعناهما جميعاً .

بدأ القتال بطواف قام به كل من المتبارزَيْن حول الآخر ثم بهجوم وضربات متلاحقة كان هذا وذاك يصدّها بترسه أو يتفاداها .

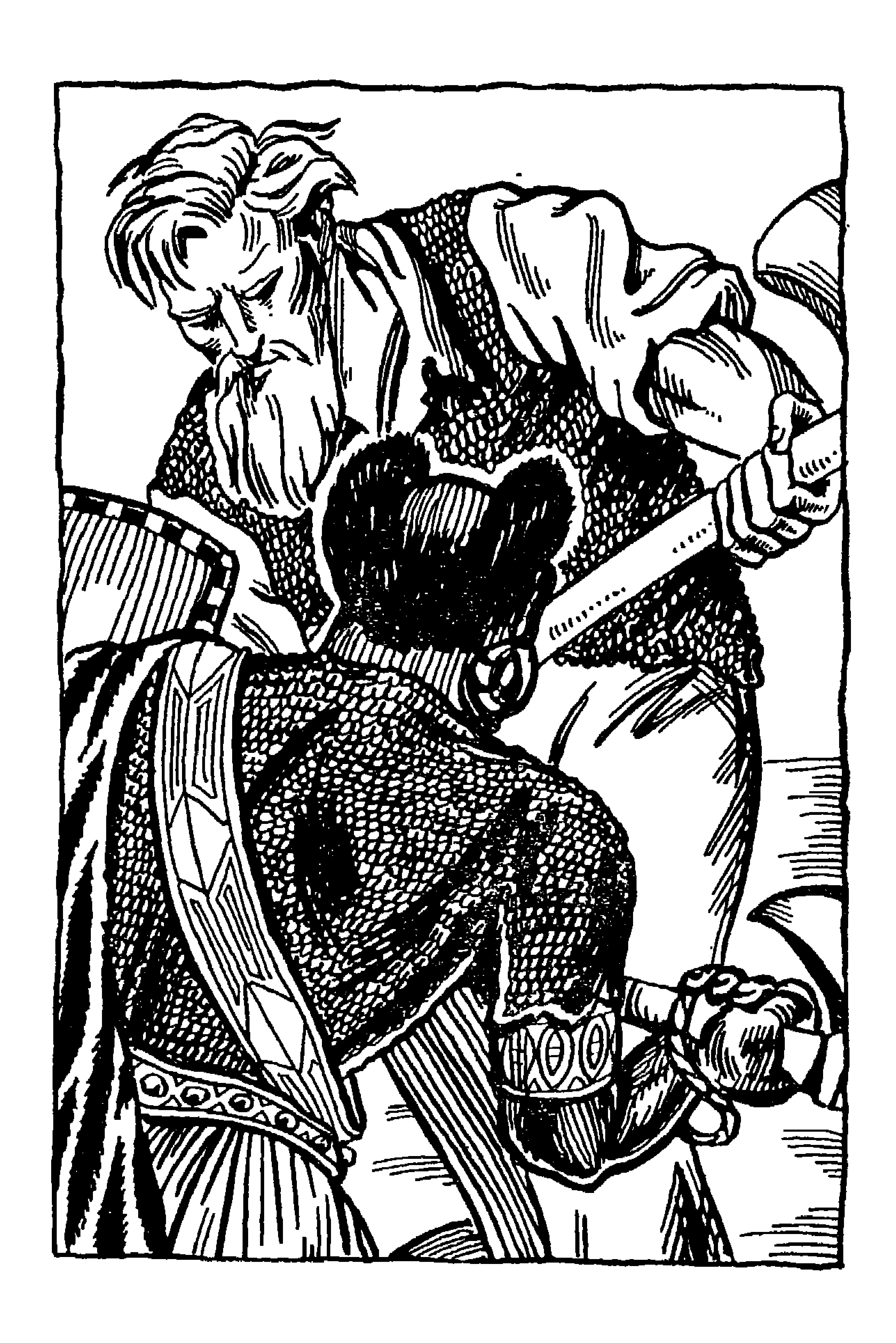
وكان الجنود المتجمعون حول الساحة قد راقهم هذا الصراع العنيف فضربوا بالنظام عُرْضَ الحائط ، وأقبلوا يتتبَّعون سير القتال عن كثَب ويطلقون هتاف الاستحسان مرّة وهتاف الأسف مرّة أخرى .

استطاع « السير هنرى » أن يكيل لخصمه ضربة شديدة حطمت ترسه وجرحته فى كتفه ، فخار « طوالا » خُوار الثور وكال « للسير هنرى » ضربة فظيعة أصابت مقبض الفأس فكسرته وأطارت الفأس من يده ، فصاح الجنود صيحة اليأس وهالهم أن يصبح بطلنا بلا سلاح وأن يروْا « طوالا» يتقدّم إليه مبتهجاً مكشراً عن أنيابه .

أما أنا فأغمضت عينىّ رعباً وجزعاً ولما فتحتهما رأيت ترس « السير هنرى» ملقىً إلى الأرض ورأيت « السير هنرى » نفسه قد طوّق بذراعيه الطويلتين خَصر « طوالا » والتحم معه فى عراك قاتل .

وتمكّن « طوالا» بعد جهد جهيد أن يفقد « السير هنرى » توازنه فسقط إلى الأرض وأسقط معه خصمه وتجدلا يتمرّغان بالتراب . وكان « طوالا » يحاول أن يهوى بفأسه على رأس « السير هنرى » ويحاول هذا وهو أعزل من السلاح أن يتفادَى تلك الضربة .

وكان « جود » قد تبعنا وشهد المبارزة وهو ممدّد على الترس فصاح فى « السير هنرى » يقول : « جرّدْه من فأسه » ولعل هذه النصيحة قد وصلت إلى أذنَىْ بطلنا فجاهد لينزع من خصمه تلك الفأس المربوطة إلى يده بشريط من جلد الثور ، وبعد قليل رأينا الشريط ينقطع والفأس



يستولى عليها « السير هنرى » ورأيناه ينهض ويبتعد عن خصمه قليلاً ويعود إليه وقد نهض هو أيضاً ويكيل له بالفأس ضربة كفيلة بأن تصرع أضخم الثيران . فانطلقت من الحناجر صيحات الدّهش والإعجاب وخرّ « طوالا » صريعاً ، وأخذ رأسه المنفصل عن جسده يتدحرج حتى استقرّ عند قدمى « إنيوزى » .

وبلغ الإعياء من « السير هنرى » مبلغه ، ففقد وعيه وسقط إلى الأرض ، فأسعفناه ورششنا على وجهه الماء ففتح عينيه وحمدنا الله على أنه حىّ يرزق .

وفى اللحظة التى غابت فيها الشمس التقطتُ من الأرض تاج « طوالا » ووضعته بين يَدَىْ « إنيوزى » وأنا أقول له :

— « خذ التاج يا "إنيوزى" فأنت الملك الشرعى لقبائل "الكوكوانا". »

فلبس « إنيوزى » التاج ثم اقترب من جثة « طوالا » فوضع قدمه فوق صدره وأخذ ينشد نشيد النصر والظفر .





١٠

بعد أن انتهى ذلك الصراع المميت ، نقلنا كلاً من « السير هنرى » و « جود » إلى كوخ « طوالا » ولم أكن أنا أحسن حظًّا منهما فقد شعرت بقواى تخور مما أصابنى فى ذلك اليوم من تعب وإعياء وخوف وهَلَع .

وجلسنا فى المساء نتحدّث ونتذاكر ما مرّ بنا من أهوال ، فحمدنا الله على سلامتنا جميعاً .

أما « فولاتا » ، الفتاة التى أنقذناها من الموت ، فقد قامت بخدمتنا ، فإنها منذ الساعة التى نجت من الهلاك لم تفارقنا ، وبعبارة أصحّ لم تفارق « جود » فاعتنت بجراح « السير هنرى » وجرح «جود» ومسحتهما بضَرْب من المرهم المصنوع من بعض الأعشاب ثم ضمّدتهما بضمادات محكمة .

وخفّت بعد ذلك تصنع لنا شيئاً من الحساء فشربناه بلذّة وسرور ثم نمنا نوماً عميقاً حتى الصباح .

وفى نحو الساعة الثامنة زارنا « إنفادو » وأخبرنا أن جميع جيوش « طوالا » حتى الزعماء فى الجهات النائية قد استسلمت إلى « إنيوزى » وأقسمت له يمين الولاء والطاعة ، وأن موت « طوالا » كفيل بأن يقضى على كلّ تمرّد وعصيان ، فما فى القوم أحد يطمع فى العرش بعد « طوالا » وبعد ابنه « سكراجا » وكلاهما قد أصبح فى عِداد الأموات .

وفى ضحوة النهار زارنا « إنيوزى » وهو معصّب الجبين بتاج الملك ، فلما رأيته محاطاً بالحراس ، محفوفاً بالعظمة والتعظيم ، تذكّرت ما كان عليه من أشهر قليلة من فاقةٍ وهوان فقلت فى نفسى : يا لتقلّبات القدر! وخففت إليه وأنا أقول :

— « السلام عليك أيها الملك ! » فقال :

— « نعم يا صاحبى . . . إنى ملك والفضل يعود إليكم أنتم الثلاثة ! »

وسألته عن العجوز « جاجول » وعما قرّره بشأنها فقال :

— « إنها السّاحرة السوداء ، فسوف أقتلها وأقتل معها جميع السَّحَرة . . . »

— « ولكنها تَعِى فى صدرها كثيراً من الأنباء والمعارف والأخبار . . . »

— « إنك على حق . . . إنها وحدها تعرف سر "الجبال الثلاثة" المدفون فيها ملوك "الكوكوانا" . . . »

— « نعم والمحفوظة فيها اللآلئ والألماس ، فلا تنس يا "إنيوزى"

وعدك ، فعليك أن تقودنا إلى هناك ولو اضطُرِرت إلى أن تحقن دم "جاجول" وتُبْقِيَ عليها لتكون دليلتنا إلى مخبأ الكنز . . . »

— « لن أنسى ذلك . . . وسأذكر كلّ ما تقوله . »

ثم ودعنا وانصرف ، واستدرت أنا إلى « جود » لأطمئن على صحته فإذا هو صريع الحمّى ، وبقى كذلك عدة أيام حتى قطعنا الأمل فى شفائه إلا الفتاة «فولاتا » فقد كانت تؤكّد أنه سيعيش ، فما توانت لحظة واحدة فى تمريضه وخدمته ، حتى إنها كانت تقضى الليل إلى جانبه ترعاه وتعتنى به .

وقدّر لصاحبنا « جود » أن ينجوَ من قبضة الداء ، وأن يدخل فى طَوْر النقاهة متماثلا للشفاء يوماً بعد يوم ، فأخبره « السير هنرى » بما فعلته « فولاتا » فى سبيله فاغرورقت عيناه بالدّموع شكراً وعرفاناً للجميل .

وذهبنا بعد أيام إلى لقاء « إنيوزى » وسألناه هل من جديد فى شأن الجبال الثلاثة ، فقال لنا :

— « يا أصحابى . . . إليكم ماعرفت : فى هذه الجبال دُفِن ويُدْفَن الملوك ، فسوف ترون جثّة "طوالا" قد وضعت إلى جنب الملوك الذين ماتوا قبله . . . هناك أيضاً نَفَق كبير حفره الرجال الذين كانوا يبحثون عن الحجارة التى تطلبونها . . . وفيها أيضاً غرفة سرية لا يعرف الطريق إليها إلا الملك و "جاجول" ولكن "طوالا" قد مات وأنا لا أعرف عنها شيئاً ولا ما تحتوى عليه . . . غير أن ثمّة أسطورة تقول إن رجلاً أبيض كان قد اجتاز الجبال ، وقادته امرأة إلى الغرفة السرية فشاهد ما فيها من

كنوز ، وقبل أن يتمكّن من الاستيلاء على تلك الكنوز خانته المرأة ، وقذف به ملك ذلك الحين إلى الجهة الأخرى من الجبال . ولم يتخطّ أحد بعده عتبة تلك الغرفة . والآن أعدُكم بأنه إذا استطعتم العثور على هذه الغرفة وكان فيها الحجارة التى تطلبون . . . » فقاطعته مشيراً إلى الألماسة الضخمة التى كنت نزعتها من جبين « طوالا » وقلت :

— «إن الحجرَةَ التى فى جبينك هى الدليل والبرهان . » فقال :

— « قد يكون ذلك . . . وكيفما كان الأمر فلكم أن تأخذوا من تلك الحجارة ما تشاؤون إذا وجدتموها و إذا كنتم راغبين فى أن ترحلوا عنى يا إخوتى . » فقلت :

— « علينا أوّلاً أن نعثر على الغرفة . . . » فقال :

— « ليس غير العجوز "جاجول" من يستطيع أن يدلّكم عليها . » فقلت :

— «وهَبْها رفضت ! . . . » فقال بلهجة صارمة :

— « إذن تموت . . . انتظروا قليلا فسوف أخيّرها بين الموت والحياة . »

وأمر أحد حاشيته باستدعاء « جاجول » فحضرت بعد قليل يجرّها حارسان وهى لا تفتأ تنهال عليهما بالصّراخ والشتائم . فقال الملك :

— « اتركاها . »

فلما خلَصت من قبضة الحارسين ، ارتمت إلى الأرض وانطوت على نفسها وهى تُجيل فى الحاضرين عينين برّاقتين كعينى الحية الرّقطاء ثم قالت :

— « ماذا تريد مني يا "إنيوزى" ؟ . .. حَذَارِ أن تمَسَّنى بسوء، فإنى أقضى عليك قضاءً مبرماً فى الحال فأنت تعرف قوّتى وسلطانى ... »

فقال « إنيوزى » بحزم وشجاعة :

— « أيّتها الذئبة العجوز ! إن قوّتك وسلطانك لم يستطيعا أن ينقذا "طوالا" فأنا لا أخافك . . . فأصغى إلىّ . أريد أن تدلّينا على الغرفة التى فيها الحجارة البرّاقة . . . » فصَرّت على أسنانها وقالت :

— « أنا وحدى من يعرف ذلك ولن أقوله لأحد . . . فعلى أبالستك البيض أن يرحلوا عنا صفْرَ الأيدى . » فقال :

— « إذا امتنعت عن القول فسوف أميتك على مَهَل! » فقالت وقد تملّكها الغضب والخوف :

— « تميتنى ؟ ! حَذَارِ أن تمدّ إلىّ يداً ... أتجهل من أنا ؟ لقد عرفت آباءك وآباء آبائك . . . كنت هنا عند ما كان هـذا البلد بكراً ، وسأكون هنا عندما يهرَم ويَشيخ ، فلن أموت إلا إذا قدّر لى الموت ، ولن يجرؤ أحد أن يمَسَّنى بسوء . . . » فقال :

— « إن الذى لم يجرؤ عليه غيرى سأفعله أنا . . . »

وأراد أن ينفّذ وعيده ، فأخذ رمحاً وسدّدها إليها ، حتى وصل السنان إلى صدرها ووَخَزَها قليلاً فزعقت وولولت وحاولت أن تنهض فما استطاعت فصاحت مذعورة :

— « لا . لا . حنانَيْك . سأتكلم إذا أبقيت على وتركتنى أعيش

لأتمتّع بحرارة الشمس وبمصّ بعض قطع اللحم . . . » فقال :

— « حسن ... كنت موقناً أنى سأعرف كيف أفُك عُقْدة لسانك ، فمنذ غدٍ ستذهبين إلى تلك الغرفة فى صحْبة "إنفادو" وإخوتى البيض . . . ولكن إذاً نكثتِ وعدك فسوف تموتين ميتة بطيئة . لقد تكلمت . »

— « كن مطمئناً يا "إنيوزى" فما أنا مخْلِفة وعدى ... ها ها ها ... كانت امرأة فيما مضى دليلاً لرجل أبيض ، فقادته إلى هذه الغرفة فلزمه منذ تلك اللحظة سوء المصير . . . » ثم أدارت فى الحاضرين عينيها البرّاقتين كقطعتين من الجمر واستأنفت حديثها وقالت :

— « وتلك المرأة كانت هى أيضاً تسمى "جاجول" . ومن يدرى ؟ فلعلها أنا ! . . . »





١١

كنّا بعد ثلاثة أيام مُعَسْكرين فى خيام عند سَفْح « الجبال الثلاثة » وقد صحِبَنا نحن الثلاثة فى هذه الرحلة «فولاتا » القائمة على خدمتنا ، و « إنفادو » ، والعجوز «جاجول » محمولة على نقّالة ، وبعض الحرس والخدم . واستأنفنا السير فى صباح اليوم التالى وسلكنا طريق سليمان ، وكنا نسير مسرعين يحدونا الشوق إلى الكنوز ، حتى إن حَمَلة العجوز « جاجول » ما كانوا يستطيعون أن يلحقوا بنا

فمررنا فى طريقنا على حفرة يبلغ عمقها نحواً من ثلاثمائة قدم ، ومحيطها نحواً من نصف ميل ، وكان الطريق عند تلك الحفرة ينقسم إلى طريقين بحيث يحيطان بها ، ولمحنا فى الجانب الآخر من الحفرة ثلاثة

شخوص عظيمة الحجم غريبة الشكل، فَحَثَثْنا السير إليها مدفوعين بعامل الفضول والتشوّق، وتبين لنا عند الوصول إليها أنها تماثيل ضخمة من الحجارة ، وعليها نقوش غريبة ، وقد رفعت فوق قواعد لا تقلّ عنها كبراً وضخامة . وكان اثنان منها يمثّلان شكل رجل، والثالث شكل امرأة عارية يزين رأسها هلال ينحدر جانباه حتى صُدْغَيْها . أما تمثالا الرجلين فقد نُحِتا بحيث يمثلان رجلين يرتديان الملابس، ولكن صورتهما كانت على جانب كبير من القبح والفظاعة . ولما رأينا هؤلاء « الصامتين » وهو الاسم الذى يطلقه « الكوكوانا » عليهم ، ثار فينا الفضول إلى معرفة الأيدى التى نحتت تلك التماثيل وحفرت تلك الحفرة وشقّت ذلك الطريق .

وبينما كنا نحن الثلاثة نطيل النظر إلى تلك التماثيل ، ونستعين بما نعرف من حوادث التاريخ القديم لاستجلاء أسرارها ، اقترب منا « إنفادو » وسألنا أنريد أن ندخل على الفور إلى مدفن الملوك أم نفضل أن نتناول شيئاً من الطعام قبل ذلك؟ فتغلّب فينا الفضول على الجوع ، ولا سيما أن الساعة لم تكن قد جاوزت الحادية عشرة فأجبنا « إنفادو » بأننا نفضّل متابعة السير إلى المدفن ، واقترحت أن نأخذ معنا بعض الزاد فقد يطول مكْثنا هناك .

ورأينا على بعد خمسين خطوة وراء التماثيل جداراً من الصخور يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً، وفوق ذلك الجدار سَفْح جبلٍ مكلّلة قمّته بالثلج.

ونزلت « جاجول» عندئذ من نقّالتها ، وحدجتنا ببصرها وهى تقهقه ،



ثم سارت متكئة على عصاها إلى ذلك الجدار ، فلحقنا بها حتى وقفت عند باب ضيق يشبه مدخل منجم من المناجم فالتفتت إلينا وقالت :

— « أيها الرجال البيض هل أنتم على استعداد ؟ إنى أطيع أوامر الملك وأريكم مخزن الحجارة البراقة . » فقلت :

— « نحن على أتم الاستعداد . » فقالت :

— « اجمعوا شجاعتكم لتقووْا على مجابهة ما سترون .. . أتأتى معنا يا "إنفادو" يا من خان ملكه ؟ » فقطب « إنفادو » حاجبيه وقال :

— « كلا . فليس من شأنى الدخول فى هذا المكان . . . وإنى أنصحك أن تقلعى عن كلامك القذر وأن تخدمى هؤلاء السادة بكل ولاء وإخلاص . إنى أعهد فيهم إليك وسوف أحاسبك على تصرفك معهم ، وحذارِ أن تفكرى فى الغدْر بهم ، فلئن فعلت لأميتنك شر ميتة ولو اجتمعت فيك أبالسة السحر أجمعين . أفتسمعين ؟ » فقالت :

— « أسمعك يا "إنفادو" وأعرفك تحبّ دائماً الغلوّ والتهويل ، فعندما كنتَ صغيراً كنتَ تقذف الوعيد فى وجه كلّ إنسان حتى فى وجه أمك ، ولكن اطمئن بالاّ فسوف أنفذ أمر الملك . لقد أطعتُ أوامر عدّة ملوك ، وسيأتى اليوم الذى يُطيعون فيه أوامرى. ها ها ها : سوف أتأمل وجوههم مرة أخرى وكذلك وجه "طوالا" . هيّا أقدموا أيها الناس وإليكم المصباح. » وأخرجت من تحت مِعْطفها المصنوع من جلد الحيوان قِرْبة مملوءة زيتاً وفى رأسها فتيلة . وتخطّت الباب المنقور فى الجدار وتبعناها فى قلق ووَجل .

ومشينا فى الرّواق نحو خمسين خطوة، فلاحظنا أن الظلمة قد خفّت فيه قليلاً ، ثم خرجنا منه إلى قبْوٍ واسعٍ عال،على شكل قبّة يبلغ ارتفاعها نحو مئة قدم ، وتنيرها خيوط رفيعة من النورْ تتسرّب من شقوق الصخور. ورأينا على طول ذلك القبْو أعمدة حسبناها أوّلاً من الجليد، ولكنها فى الواقع أعمدة من الماء المتجمّد فيا له من منظر جميل !

ولم تتركنا « جاجول » نمتّع الطرف بهذه الرّوائع فإنها كانت حريصة على أن تفرَغ من مهمتّها بأسرع وقت ، فعلّلنا أنفسنا أن نقضى فى هذا المكان وقتاً أطول عندما نعود إليه ،واضطُرِرنا أن نُذْعِن لإشارة «جاجول» وأن نسير وراءها . اجتزنا القبو الصّامت فوقفت بنا « جاجول » فى نهايته عند بابٍ مربّع الشكل ، فسألتنا بلهجة خطيرة كأنها تريد أن تثير فى نفوسنا الفزع والهلع :

— « هل أنتم على استعداد لدخول المدفن ؟ » فقال « جود » ساخراً وهو يهدّئ من روع « فولاتا» المتشبّثة بذراعه والمرتعدة الفرائص :

— « بكل تأكيد ! إننا فى رحلة ممتعة جميلة ! »

ومشت العجوز « جاجول » تضرب الأرض بعصاها ، وتبعناها واحداً بعد الآخر فوجدنا أنفسنا فى غرفة كئيبة المظهر تبلغ مساحتها أربعين قدماً طولاً فى ثلاثين عرضاً،نَقَرَتها يد الإنسان فى جوف الجبل ، ولم يكن يتسرّب إليها الضوء تسرُّ بَه إلى القبو الواسع الذى تركناه .

لم نرَ لأول وهلَةٍ فى تلك الغرفة إلا مائدة من الحجر مستطيلة الشكل

تكاد تبلغ طول الغرفة ، ثم رأينا بعد ذلك تمثالا ضخماً أبيض قد أقيم في نهايتها ، كما أقيمت على جوانبها تماثيل أخَر بيضاء اللون وأصغر حجماً من التمثال الأول ، ثم لمحنا في وسط المائدة شبح شيءٍ ما .

وكانت عيناى قد تعودتا النظر في العتمة ، فعندما تبين لى ذلك الشبح وعرفت ما هو ، جريت هارباً كمن يطارده عِفْريت من العفاريت ، ثم رجعت لأكون إلى جانب أصحابي .

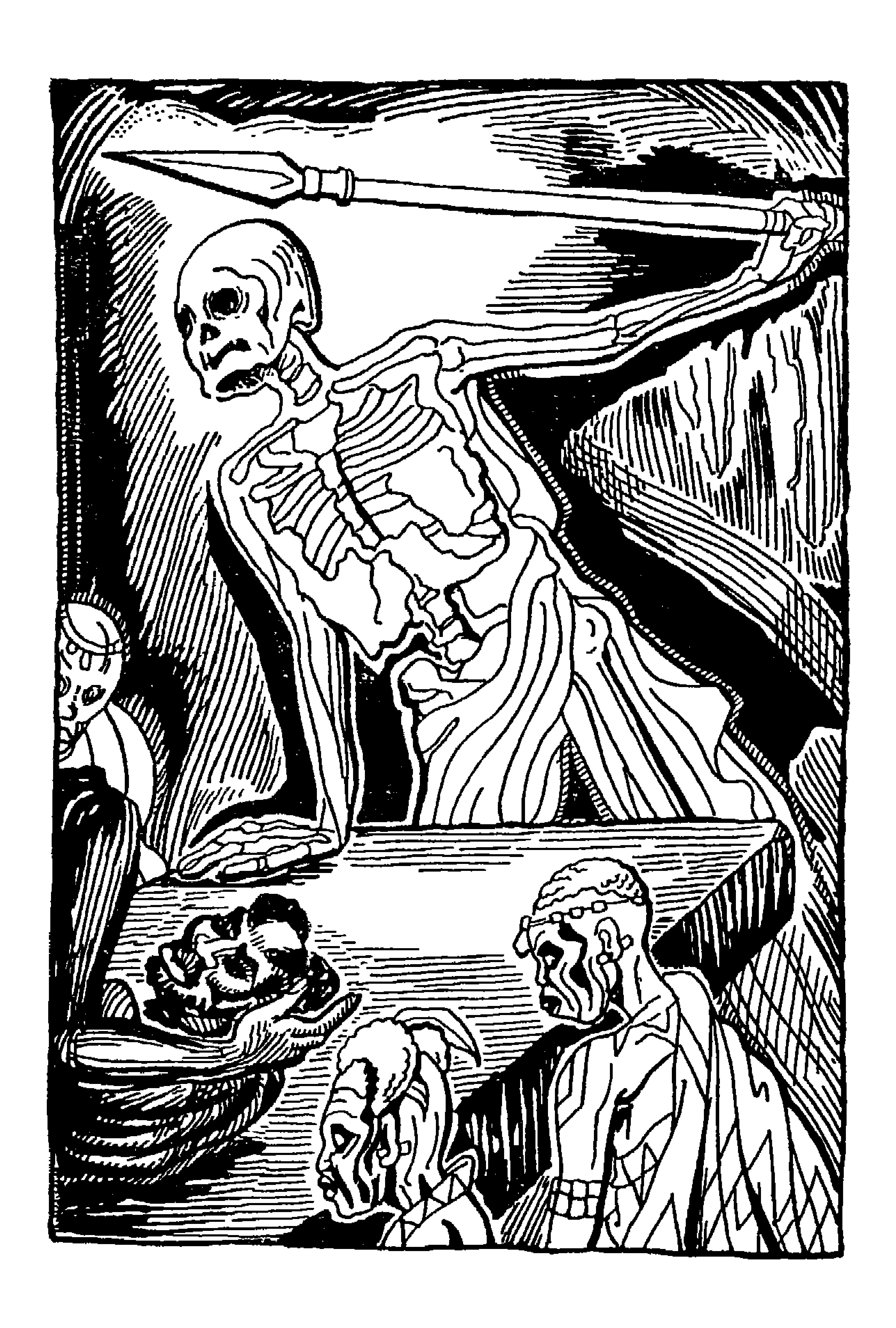
والحق إنه منظر يقف له شعر الإنسان ، فالتمثال الأبيض القائم في نهاية المائدة كان تمثال الموت في شكل هيكل عظمى ضخم ، وفي يده رمح بيضاء طويلة يَهُم أن يطعن بها ، فقلت في نفسي : « ترى ما هذا ؟» وسمعت « جود » يقول وهو يشير إلى التماثيل المتجمعة حول المائدة :

— « وهؤلاء من هم ؟ ! » وتبعه « السير هنرى » يقول وهو يشير إلى الشبح القائم في وسط المائدة :

— « وهذا من هو ؟ » فقهقهت « جاجول » وقالت :

— « الويل لمن يدخل غرفة الموتى ! ! ها ها ها ! تعال أيها الأبيض وأشارت إلى " السير هنرى " وانظر إلى الرجل الذى قتلته ! »

وأمسكت بأصابعها المعروقة سُتْرة « السير هنرى » وجذبته إلى وسط المائدة فتبعناهما جميعاً . وحدّق « السير هنرى » في ذلك الشبح فتراجع قليلا بادِئ الاضطراب والاشمئزاز فما كان ذلك الشبح إلا جثة الملك «طوالا» وقد وضع فوق ركبتيه رأسه الذى حزّه «السير هنرى» بضربة الفأس



كانت الجثة عارية ، ولكن كان عليها طلاء رقيق لامع ، فحرنا فيما يكون حتى رأينا قطرات من الماء تنسكب من سقف الغرفة وتستقرّ فوق الجثّة ، ثم تنحدر منها إلى ثقب فى وسط المائدة فتنزل منه وتشربها الصخور ، ففهمت أن جثّة « طوالا » ستتحول رويداً رويداً إلى جسم متجمّد ، وبهذه الطريقة يحتفظ « الكوكوانا » بجثث ملوكهم المتناثرة حول المائدة .

سئمنا من النظر إلى الجثث والأشباح فطلبت إلى « جاجول » أن تقودنا إلى غرفة الكنوز ، فمرت وراء تمثال الموت وقالت :

— « ها هى ذى الغرفة فأشعلوا المصباح وتفضّلوا بالدخول ! »

ولم تكد تتم كلامها حتى حطّت قِرْبة الزيت على الأرض، وأسندت ظهرها إلى جدار الغرفة ثم أشعلت فتيلة القربة . وفتّشتُ عن الباب فلم أجد شيئاً سوى حائط صفيق لا منفذ فيه فقالت « جاجول » :

— « هذا هو الطريق يا سادة ! » فقلت متوعّداً :

— « لا تسخرى بنا أيتها العجوز الشمطاء ! » فقالت :

— « لست بساخرة . . . انظروا . . . »

وأشارت بيدها إلى باب حجرىّ فى الأرض رأيناه يرتفع ويستقرّ فى تجويف الحائط الذى فوقه كأنه نُقِر خصّيصاً ليحلّ فيه . كان ارتفاع ذلك الباب الحجرىّ عشر أقدام ، وسمكه لا يقل عن خمس أقدام ، ووزنه لا شكّ يزيد على عشرين طنّاً . ولقد قدّرتُ أنه يتحرك بطريقة

ثقلين متوازيين بحيث يرتفع هذا إذا هبط ذاك ويهبط ذاك إذا ارتفع هذا ، ولكن أين مكان ذلك الثّقل وكيف يعمل ؟ هذا ما لم نستطع معرفته ولا العثور عليه .

وبَدَتْ لنا وراء الباب الحجرىّ المرتفع هوّة عريضة مظلمة، فتضاربت فينا العواطف وطارت بنا الأحلام كل مطير . . . لقد وصلنا أخيراً إلى كنوز الملك سليمان ، أتُراها خرافةً وخيالا أم أن « دا سلفسترا » الكبير قد قال حقًّا ؟ أنعثر على تلك الكنوز التى تجعل منا أغنى أغنياء العالم أم نعود متعثّرين بأذيال الخيبة والسخرية ؟ ! وقطعت « جاجول » علينا تفكيرنا أو بالأحرى تفكيرى أنا وتخطّت عتبة الهوّة وقالت :

— « ادخلوا يا رجال الكواكب والنجوم ، ولكن أصْغُوا أولاً لخادمتكم "جاجول" : إن الحجارة البرّاقة التى سترونها قد استخرجت من الهوّة التى استقرّ فوقها "الصامتون" وجمّعت هنا ولا أدرى من جمّعها . وأغلب الظنّ أن الذين جمعوها هنا قد اضطُرّوا إلى الفرار مستعجلين ، فلم يتمكّنوا من حملها معهم . ومنذ ذلك الحين لم يدخل عليها أحد إلا امرأةً واحدة . ثم تواترت رواية الكنز فى سكان هذا البلد جيلاً بعد جيل ولكن ما من أحد يدرى مكان الغرفة وسرّ بابها . . .

واتّفق لرجل أبيض جاء من وراء هذه الجبال ، وقد يكون هو أيضاً من أبناء النجوم ، أن ينزل ببلدنا فرحّب به ملك ذلك العهد ، ولقد جازف ذلك الرجل فأقبل إلى هذه الغرفة فى صحبة امرأة ، واكتشفت تلك المرأة عرَضاً

واتّفاقاً سرّ الباب الذى لا يمكن أن تعرفوه ولو ظللتم ألف سنة تبحثون عنه.

دخل الرجل والمرأة إلى الغرفة ، ورأيا الحجارة البرّاقة ، وملأ الرجل الأبيض منها قِرْبة كبيرة ، فلما همّ بالخروج من الغرفة انحنى إلى الأرض ليلتقط أيضاً حَجَرة برّاقة كبيرة وأطبق عليها كفّه . . . »

وسكتت « جاجول » هنيهة كأنها تريد أن تستريح فقلت لها فى صبر نافد وحبّ استطلاع مضطرم :

— « وماذا جرى للرجل الأبيض "دا سلفسترا" ؟ »

فارتعدت «جاجول» عند سماعها هذا الاسم وقالت بصوت أجشّ :

— « وكيف عرفت اسم الميت ؟ ! » لا أحد يعلم ماذا جرى عند ذاك ، فالرجل الأبيض قد تملّكه الرعب فقذف بالقِرْبة المملوءة من الحجارة البرّاقة ، ولم يحتفظ إلا بالحجَرة البرّاقة التى كانت فى يده ، فأخذها منه الملك وهى نفس الحَجَرة التى انتزعتها أيها الرجل الأبيض من جبين "طوالا" . فقلت وأنا أجيل الطَّرْف فى مدخل الغرفة :

— « وتقولين إنه لم يدخل أحد هذه الغرفة منذ ذلك الحين ؟ ! »

فقالت :

— « لا لم يدخلها أحد ، ولكن جميع الملوك عرفوا سر الباب وفتحوه ، غير أنهم لم يدخلوا الغرفة قط . . . ففى قبائلنا رواية تقول : "إن من يدخل هذه الغرفة يموت عند ظهور القمر فى دورته التالية" . . . كما مات الرجل الأبيض فى الكهف الذى وجدته فيه عند الجبل أيها الرجل الأبيض !

ها ها ها ! إن ما أرويه لكم هو الحقيقة بعينها . »

ساءلت نفسي كيف تعرف هذه العجوز كل هذه الأشياء فاستمرّت العجوز تتحدّث وتقول :

— « ادخلوا أيها السادة فإن قلتُ صدقاً فسترون فى الأرض القريْبة المملوءة بالحجارة البرّاقة ، وإن كانت رواية قبائلنا هى أيضاً صادقة فلا تلوموا إلا أنفسكم . . . ها ها ها ! ! »

ورفعتْ بيدها المصباح ودخلت فى الرّواق المُفْضى إلى الغرفة ، فتردّدتُ أنا فى الدخول وشجّعنى قول « جود » :

— « هيّا ندخل ولا نأبه لكلام هذه العجوز المجنونة ! »

دخل « جود » تتبعه « فولاتا » وهى ترتعد من رأسها إلى أخمَص قدميها ، ودخلنا وراءه ، وكانت العجوز تنتظرنا على بعد خطوات فى ذلك الرّواق المحفور فى قلب الصخر فقالت :

— « انظروا يا سادة ! إن الذين جمعوا هنا الكنز واضطُرُّوا إلى الهرب مسرعين كانوا ينوون أن يسدّوا مدخل الغرفة فيما لو تمكّن غيرهم من العثور على سرّ الباب ، ولكنهم لم يجدوا الوقت اللازم لذلك . »

وأرتنا « جاجول» عدداً من الحجارة المربّعة وضع بعضها فوق بعض فى وسط الرّواق بنيّة سدّه ، وعدداً آخر فى جانبيه لاستعماله عند الحاجة . والتفتّ إلى « فولاتا» فرأيتها قد ازدادت خوفاً وهلَعاً وارتجافاً فقالت لنا إنها مريضة فلن تقوى على السير معنا إلى أبعد من ذلك ، ورَجَتْ منّا أن

تنتظرنا فى ذلك المكان ، فأجلسناها على السّور الذى لم يتمّ بناؤه ، ووضعنا إلى جانبها سلّة الزاد وتابعنا المسير .

وما هى إلا خمس عشرة خطوة خطوناها أيضاً فى ذلك الرّواق حتى وجدنا أنفسنا إزاء بابٍ من الخشب عليه تصاوير دقيقة ، وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه ، مما يدلّ على أن الذى مرّ منه لآخر مرة نسِىَ أن يُقْفِلَه أو أعوزه الوقت لإقفاله .

ولمحنا على عتبة الباب قِرْبَةً من جلد الحيوان يلوح أنها محشوّة بالحصى فعكست « جاجول » على القِرْبة نور المصباح وقالت :

— « إيه إيه أيها الرجال البيض ! هل صَدَقَتْكم القول؟ إن الرجل الأبيض قد هرب ناجياً بنفسه بعد أن رمى القِرْبة فهى الدليل على صدق ما قلت . . . »

فانحنى « جود » ليرفع القِرْبة فكانت ثقيلة ، وعندما أمسك بها سمع لها رنينٌ خاصٌّ فقال « جود » بصوت مخنوق :

— « ما أظنّ إلا أنها مملوءة جواهر ! » فقال « السير هنرى » بصبرٍ ذاهب :

— « لنتقدّم . . . وأنت أيتها العجوز هاتى مصباحك . . . »

وأخذ المصباح واجتاز عتبة الباب ، ووضع المصباح فوق رأسه ، فلحقْنا به ناسين كيس الجواهر المطروح على الأرض ، وها نحن الآن فى غرفة كنوز الملك سليمان !!!

وكانت غرفة منحوتة فى الصخر ، لا تزيد مساحتها على عشر أقدام مربعة ، فرأينا عند أحد جدرانها كَوْمة تبلغ السقف من أنياب الفيلة ، فقلت فى نفسى لعلّ الملك سليمان قد أخذ من هذه الأنياب ما صنع به عرشه العاجىّ الذى لم يكن له مثيل فى جميع الممالك .

وفى الجدار المواجه رأينا صفًّا عالياً يتألف من نحو عشرين صندوقاً مدهونة باللون الأحمر ، فصِحْتُ فى رفاقى :

— « ها هى ذى الجواهر . . . هاتوا المصباح ! »

فاقترب « السير هنرى » وأدنى المصباح من الصندوق الأول وكان غطاؤه محطّماً ، ولا شك أن «دا سلفسترا» هو الذى حطّمه ، فمددت يدى وأدخلتها من فتحة الصندوق ، وعدت بها مملوءة لا من الجواهر بل من قِطَع نقود ذهبيّة غريبة الشكل ، وعليها كتابة يلوح أنها كتابة عبرانية . . . فقلت لرفاقى :

— «كيفما كان الأمر فلن نعود بوفاضٍ خاوٍ ، فلا بدّ أن فى كلّ صندوق من هذه الصناديق العشرين ما يقرب من ألفَىْ قطعة ، وإنها لثروة لا بأس بها ! »

فقال « جود » :

— « أتظن أن "دا سلفسترا" قد جمع كل الجواهر واللآلئ فى ذلك الكيس ؟ »

وفطنتْ «جاجول» من ملامحنا إلى ما يجول بخواطرنا ففهمت كلامنا وقالت :

— « إذا كنتم مصممين على رؤية الحجارة البراقة فانظروا إلى تلك الزاوية ففيها حفرة تحتوى على ثلاثة صناديق : اثنان منها مختومان والثالث مفتوح . »

فتوجه « السير هنرى» بمصباحه إلى حيث أشارت ، ولم يكد يصل إليه حتى صاح فينا مدهوشاً : « تعالوا . . . تعالوا . . . »

فهرعنا إليه فوجدنا ثلاثة صناديق حجرية ؛ اثنان مقفلان بغطاء من الحجر أيضاً كما قالت العجوز ، والثالث مفتوح وغطاؤه مسند إلى الحائط ، فانحنينا عليه نفحص ما فيه فبهر النور المشع منه أبصارنا فلم نميز ما فيه ، واستطعنا بعد قليل أن نرى الصندوق مملوءاً إلى ثلاثة أرباعه بقطع ضخمة من الألماس البكر . فالتقطت عدداً منها وأخذت أقلبه فى يدى وألمس جوانبه ، فوثقت كل الوثوق أنها درر حقيقية ، فاصفرت وجوهنا ، وأخذ كل منا يتطلع إلى وجه صاحبيه كأننا نفر من المتآمرين يهمون بارتكاب جريمة . ودوى عندئذ صوت « جاجول » قائلة :

— « ها هى ذى الحجارة البراقة التى تحبونها هذا الحب الشديد أيها الرجال البيض . . . إنها كمية عظيمة تفوق ما ترغبون وتشتهون . . . خذوها داعبوها بأصابعكم . . . كلوا منها . . . ها ها ها ! اشربوا منها . . . ما لكم شدهتم عند رؤية جانب صغير من هذه الحجارة ؟ افتحوا الصندوقين الآخرين ففيهما ما هو أعظم وأنفس . »

واستمعنا لما قالت ، وانكببنا على الصندوقين نعالجهما حتى فتحناهما

فإذا هما مملوءان بالحجارة الكريمة من صنف أصفى وأسمى ؛ ولم نلمح ونحن فى ذهولنا ودهشتنا أن العجوز « جاجول » قد رمقتنا بنظرة قاتلة ، وتسلّلت تسلّل الأفاعى إلى خارج الغرفة ، واجتازت الرواق إلى بابه الحجرىّ . ولم نصْحُ من ذهولنا إلا عند ما سمعنا صوت استغاثة يهيب بنا قائلا :

— « إلىّ . . . إلىّ . . . المعونة ! المعونة ! الباب يهبط . . . آه ! آه ! لقد ضربتنى بسكّينها . . . »

فجرينا إلى الرّواق ورأينا فى ضوء مصباحنا أن الباب الحجرىّ يهبط إلى الأرض وهو منها على بُعْد ثلاثة أقدام فقط ، ورأينا على مقربة منه « فولاتا » و « جاجول » فى صراع مستميت يتدفّق الدم من الأولى وهى مع ذلك ممسكة بخناق العجوز التى تضطرب فى يديها اضطراب القطّ المتوحّش . . . آه ! لقد خارت قوى الفتاة المسكينة فسقطت لاحراك بها ، ونجت العجوز من قبضتها فأخذت تزحف زَحْف الأفعُوان لتخرج من الفتحة الضيقة الباقية بين طرف الباب وأرض الرواق . . . لقد فاتها الوقت . . . آه يا إلهى ! لقد سحقها الباب فى اللحظة التى هرعنا إليها ...

حدث كلّ هذا فى ثوان قليلة فاتّجهنا إلى « فولاتا » فإذا العجوز كانت قد ضربتها فى صدرها ضربة بسكين قاتلة ، وقدّرت أن روحها ستفيض بعد قليل ، فلما رأتنى قالت لى بنفَس متقطّع :

— « إنى أموت يا سيّدى ! قل لسيّدى (تقصد جود) إنى . . .

إني أحبه . . . وإني أموت سعيدة فما كان لمثله أن يزحم حياته بمخلوقة مثلي . . . قل له . . . ولكن لا يا سيدي لا تقل له شيئاً . . . سوى أني أحبه . . . »

وكان « جود » قد اقترب من الفتاة وأخذ يحتضنها بذراعيه مواسياً ملطفاً آلامها فلفظت الروح بين يديه . . . فنهض والدموع تنحدر من عينيه فقال له « السير هنري » :

— « لا تحزن عليها يا صاحبي . . . » فقال « جود » مدهوشاً :

— « ماذا تقول يا سيدي ؟ ! » فقال « السير هنري » :

— « أقول إنك تستطيع أن تلحق بها بعد قليل . . . ألا ترى أننا قد دفنا أحياء ؟ ! »

كانت فجيعتنا بالفتاة المسكينة قد أنستنا الحال الراهنة ، فاستيقظنا من غفوتنا على كلام « السير هنري » ، وأدركنا الخطر الجسيم الذى وقعنا فيه . فالباب الحجرى قد عاد إلى مكانه وليس من يعرف سره غير تلك العجوز المدقوقة العظام تحته ، ولا سبيل إلى تحطيمه إلا بقوة الديناميت ومن أين لنا الديناميت ! ؟

استسلمنا لحظة إلى التفكير فى هذا المصير الفظيع الذي ينتظرنا ، فانتشلنا منه « السير هنري » وهو يقول بصوت محبوس :

— «يجب أن نعمل فالمصباح سينفد منه الزيت بعد قليل فهيا نجد فى البحث لعلنا نعثر على السر الذي يرفع الباب وينزله . »

فركضنا نحن الثلاثة إلى الباب ثم إلى الجدران نتلمّس فيها مكمَن السرّ فذهب بحثنا سُدًى، وعدنا إلى غرفة الكنز أو إلى المقبرة التى سَنُدْفَن فيها ونحن أحياء، ورأيت فى طريقنا سلّة الطعام التى كنا تركناها إلى جانب المسكينة « فولاتا » فتناولنا منها بعض الزاد فانتعشنا قليلاً وتابعنا البحث والتنقيب فى تلك الغرفة الجهنميّة على أمل أن نجد فيها منفذاً يُنقذنا من ذلك القبر. ولكن هيهات . . . وزاد موقفنا حرجاً تراقص النوَر فى المصباح فقد كاد زَيته ينضب فسألنى « السير هنرى » :

— « عزيزى "كاترمان" كم الساعة الآن ؟ » فقلت :

— « الساعة السادسة ، ولقد دخلنا إلى القبو فى الساعة الحادية عشرة ولسوف يستبطئنا "إنفادو" فيسعى إلى إنقاذنا. . . » فقال « السير هنرى»:

— « ولكنه يجهل سرّ الباب. . . وهَبْه وجد الباب فأنَّى له أن يفتحه بدون معرفة السرّ . . . إن خمس أقدام من الحجر تفصِلنا عن عالم الأحياء فلست أرى يا أصحابى إلا الاستسلام لمشيئة القدر ! إن كثيرين من الباحثين عن الكنوز لَقُوا حَتْفَهُم فى سبيلها، فليُضِف القدر أسماءنا إلى القائمة التى أعدّها عن ضحايا الجشع الإنسانى . »

وأرسلت فتيلة المصباح دَفْقَة كبيرة من النور كانت دفقة الوَداع ، ثم انطفأ المصباح وغمرتنا ظلمة حالكة . . . ومرّت علينا ساعات طوال كنا فيها عُرْضَةً للهواجس نندُب حظّنا ونُنْحِى باللائمة على أنفسنا الطمّاعة . وفى وسط ذلك الظلام والصمت المخيف سمعت « السير

هنرى » يسأل « جود » قائلا :

— « كم عود ثقاب بقِيَ فى العلبة يا عزيزى "جود" ؟ » فقال :

— « ثمانية أعواد . » فقال :

— « أشعل واحداً منها لنعرف كم الساعة الآن . »

فأشعل « جود » عوداً ونظرت فى ساعتى فإذا نحن فى الساعة الخامسة ، فاقترحت أن نتناول شيئاً من الطعام ، فأكلنا وطلب « السير هنرى » إلى « جود » أن يذهب إلى الباب الحجرىّ ويصرخ بملء صوته مستغيثاً فقد يسمعنا أحد من الخارج ، ففعل « جود » وعاد إلينا يلهث من التعب . وقضينا النهار كلّه فى تفكير وسأم وضجر إذا صحّ أن نسمى الظلمة نهاراً ، وعندما أشعلت عود الثقاب لأعرف فى أى وقت نحن كانت الساعة السابعة فخطر لى خاطر وقلت لصاحبى :

— « كيف يكون الهواء غير فاسد فى قَبْوٍ كالذي نحن فيه مسدود الجوانب محكم الإغلاق ؟ ! » فقفز « جود » من مكانه وقال :

— «ما أصْوَبَ رأيك! فلابدّ من تسرّب الهواء إلينا من مكان ما وإلا كنا اختنقنا ، ولا إخاله يتسرب إلينا من الباب فما رأيت فى حياتى باباً أحكَم إغلاقاً من هذا فلنبحث . . . »

واستسلمنا نحن الثلاثة إلى البحث عن ذلك المتنفّس وقد نفخ فينا الأمل روحاً جديداً . وبعد نحو ساعة صاح فينا « جود » :

— « تعالوا ... تعالوا ! » فخففنا إليه ونحن نتلمّس الطريق فقال لى :

ـ « يا عزيزي "كاترمان" ضع يدك هنا مكان يدى وقل لى ألا تُحِسّ بشيء ؟» فقلت :

ـ« أحس بنفخة هواء » فقال :

ـ« والآن اسمعا . »

ونهض وأخذ يضرب بقدمه الأرض التى كان واقفاً عليها ، فسمع لضرباته رنين الشيء الأجْوَف ، فاستبشرنا خيراً فأخرجت عود ثقاب وأشعلته بيد مضطربة لأنه لم يبق معنا غير ثلاثة عيدان . فرأينا أننا فى زاوية من زوايا الغرفة ، ولمحنا فى ضوء عود الثقاب حلقة من الحجر فى أرض الغرفة ، فكمّم الأمل أفواهنا فما نطقنا بحرف ولا صحنا مستبشرين ، فأخرج « جود » سكينه وأخذ يحفر حول الحلقة ويزيل عنها التراب حتى بان مقبضها ، فحاول بما أوتى من عزم وقوة أن يجذبها إليه فلم يُفْلح ولا أفلحتُ أنا بعده ، فتقدم « السير هنرى » وأمسك بالحلقة وأمسكنا نحن بخصره فشَدّ وشددناه واقتلع من الأرض لَبِنَة مربعة دخل بعدها الهواء فملأ خياشيمنا فصاح :

ـ « أشعل عود ثقاب يا "كاترمان" واحرص على أن لا ينطفئ . »

سبحانك اللهم ! لقد رأينا فى ضوء عود الثقاب الدرجة الأولى من سلم حجرىّ ، فهممنا بالنزول منه فاستوقفنى « السير هنرى » وطلب إلىّ أن آتى بما بقى لدينا من طعام وشراب فقد نحتاج إليهما . فذهبت لآتى بالسلة فمررت بصناديق الألماس وقد كانت بالأمس سبب كآبتنا

وهلاكنا ، فنظرت إليها فلعب بى الشوق والطمع فملأت منها جيوبى فقد تباعد الأيام بينى وبينها وصحت فى رفيقىّ :

ــ « ألا تأخذان شيئاً من الألماس معكما ؟ أما أنا فقد ملأت جيوبى ! » فسمعت « السير هنرى » يقول :

ــ « لعنة الله على الألماس وساعته فلن أنظر إلى خياله ما حييت ! »

نزلنا السلّم وكان يتألف من خمس عشرة درجة ، ولما وصلنا إلى نهايته أشعلت العود قبل الأخير من عيدان الثقاب التى كانت معنا ، فرأينا أن السلم قد أفضى بنا إلى رواق فسلكناه ، وأحسسنا أننا قد انتهينا إلى رواق آخر فخفنا شرّ العاقبة ، وخشينا أن نكون وقعنا فى أروقة لا نهاية لها ولا منفذ ، فوقفنا نستريح وكان «جود» قد تقدّمنا قليلا فسمعناه يهتف بنا بعد قليل :

ــ « أقدِما ! أقدما ! لقد عثرت على جدول ماء . »

فسارعنا إليه ودهشنا من رؤية ذلك الجدول من الماء يسير فى بطن الجبال ، فشربنا منه حتى ارتوينا ، ولزمتنا الحيرة ثانية فيما نحن فاعلون ، ووجدنا إلى ناحية من الجدول رواقاً جديداً ، فاقترح « السير هنرى » أن نسلكه فإما متنا فيه ، وإما نفذنا منه إلى غيره وهكذا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . . .

وسار « السير هنرى » أمامنا وسرنا وراءه نتخبط فى الظلام ، وكان يمشى بخطوات فسيحة حتى ابتعد منا فإذا به يصيح فينا :

— « أقبِلا يا صديقىّ أقبِلا وقولا لى : أهذا الذى أراه هو نور حقاً أم داخلتنى لوثة من الجنون ؟ ! »

فأقبلنا عليه ورأينا النور ينحدر إلينا من كوّة صغيرة ، فمشينا إليها وكان الرواق كلما تقدمنا فى السير يضيق ثم يضيق حتى أصبح كأنه وِجار ثعلب ، فاضطُررنا إلى الزحف على بطوننا حتى خرجنا من ذلك الجُحْر ووجدنا أنفسنا فى الهواء الطلق تحت سماء مرصعة بالنجوم فلم نتمالك عن البكاء فرحاً وسروراً .

وبعد أن استرحنا قليلا استلقينا إلى العشب واستسلمنا للرقاد ، فصحونا عند الفجر واجتزنا بعض التلال والمنحدرات حتى وصلنا إلى الطريق الكبير فسلكناه ، وشاهدنا بعد قليل إلى جانب من جوانبه ، بعض الخيام وأمامها جماعة من الناس يوقدون النار ، فمشينا إليهم ولما أصبحنا على قاب قوسين منهم ركض إلينا كبيرهم ، فلم يكد يرانا حتى ارتمى إلى الأرض وهو يصيح صيحات الخوف والهلع ، فعرفته وناديته قائلا :

— « "إنفادو" يا "إنفادو" لا تخف فنحن أصحابك ! »

فنهض وجرى إلينا وعيناه لا تزالان جاحظتين من الخوف وقال :

— « آه أيها السادة . . . أصحيح أنكم عُدتم من بين الأموات ؟ »

وأقبل علينا ذلك المحارب القديم وهو ينتحب من الفرح . . .



١٢

قضينا عشرة أيام بعد ذلك الصباح الذى لن ننساه ونحن نلقى من « إنيوزى» كل رعاية ومودة ، وما فكرنا قط فى أن نعود إلى غرفة الكنز فقد كان ذكرها أو التفكير فيها يبعث فينا الرّعب والهلَع ، ولكننا حاولنا مرة أن نعود إلى الكوّة التى خرجنا منها فلم نجدها ، لأن المطر كان قد محا آثار أقدامنا ، وربما كانت الرياح والتراب والمطر قد اشتركت جميعها فى سدّ تلك الكوّة ، كما أنه كان هناك عدة كوًى وفتحات فليس من اليسير أن نعرف من أيها خرجنا إلى عالم بنى البشر .

وفى عشيَّة اليوم الذى عيّناه للرحيل ذهبنا نودّع « إنيوزى» ونطلب إليه أن يبعث معنا ثُلَّة من الحرس توصلنا إلى ما وراء الجبال . فنظر

إلينا بعينين مغرورقتين بالدموع وقال :

ـ « أقرّ قراركم على أن تتركوني يا أصحابي ؟ هل ارتكبت ذنباً أستحقّ عليه منكم هذا القصاص؟ إن الحجارة البراقة أغلى لديكم وأكرم منزلة من صاحبكم " إنيوزى "؟» ثم سكت قليلا واستأنف حديثه قائلا :

ـ «إذن لا بدّ من الفراق ، ولابدّ من أن أعيش بقلب معذّب . فإن رحلتم فقدتكم إلى نهاية العمر ، فمن المحال أن تصل إلىّ أية أنباء منكم . . . لتكن مشيئتكم ، ولكن أرجو أن تقولوا لبني جنسكم إنه ما من أحد يستطيع أن يجتاز تلك الجبال ، فإن اجتازها اغتالته الصحارى . . . وكيفما كان الأمر فلن أسمح لأحد أن يدنّس بلادى ويتعاطى فيها تجارة الأسلحة والمسكرات ...وما دمتم قد عوّلتم على الرحيل فسيصحبكم عمى "إنفادو " وسيجتاز بكم هذه الجبال من طريق خفيّة يعرفها هو ، فالوداع يا أصحابي ويا سادتي ويا إخوتي من الرجال البيض ! »

ونهض وشدّ على أيدينا بعين دامعة فودّعناه وانصرفنا .

وعند انبلاج الفجر خرجنا من عاصمة « الكوكوانيين » وخرج الأهلون كلهم بين رجال ونساء وأطفال يودعوننا وينثرون علينا الأزهار ، فحيّونا أجمل تحيّة وحيّيناهم . وابتعدنا عن العاصمة يصحبنا « إنفادو » وكوكبة من رجاله فقادنا من الطريق التي يعرفها ، ومشى معنا يومين كاملين حتى اجتزنا تلك الجبال ، ووصلنا إلى بداية الصحارى فدلّنا على طريق أخرى ستفضى بنا بعد يوم أو يومين إلى الواحة الخضراء

القائمة فى وسط القفار ، ولا يصعب علينا بعد ذلك أن نقطع القسم الباقى من الصحراء إلى أرض الزولو .

ودّعنا «إنفادو» وداعاً حارًّا ، وأدى لنا رجاله التحيّة الجميلة فشكرناهم جميعاً وسرنا فى طريقنا يتبعنا خمسة من الرجال يحملون المُؤَن والزاد ، ومكثنا نسير حيناً ونستريح حيناً آخر حتى لمحنا فى ظهر اليوم الثالث من مسيرنا أشجار الواحة فتنفّسنا الصُّعَداء وما هى إلا ساعات قلائل حتى كنا نمشى على العشب ويشنف آذاننا خرير المياه . . .

وفى اليوم التالى تقدّمتُ عن القافلة قليلاً ، وكنت أمشى على ضفّة جدول ماء يخرج من الواحة ويغور فى رمال الصحراء ، فلم أتمالك من أن أفْرُك عينى لأتأكدّ من هذا الذى رأيته . . .

رأيت على بُعْد عشرين خطوة منى كوخاً مصنوعاً من الأعشاب والقصب ، فدُهِشت من وجود كوخ فى تلك البقعة ، فما كدت أصحو من دهشتى حتى رأيت باب الكوخ يفتح ويخرج منه رجل أبيض ذو لحية سوداء ، يرتدى بجلد الحيوان . فمشى إلىّ وهو يعرج قليلا ثم وقف فحدّق كلٌّ منّا فى الآخر صامتاً ذاهلا وكان « السير هنرى » و « جود » قد لحقا بى فصحت فيهما :

– « بحق السماء إلا قلتما لى أرجلٌ أبيض من أرى أم أنا مجنون ؟ »

فأجال رفيقاى نظرهما فى الرجل ، وعلى حين فجأة صاح الرجل صَيْحة عظيمة وأقبل إلينا . ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى سقط



فاقد الرّشد ، فسارع إليه « السير هنرى » وارتمى عليه يفحص نبضه فما عتّم أن صاح :

ـ « يا لعدالة السماء ! إنه شقيقى "جورج" . »

وعلى أثر تلك الضجّة التى أثرناها رأينا باب الكوخ يفتح ثانية ويخرج منه رجل يرتدى هو أيضاً بجلد الحيوان ، ويحمل فى يده بندقية فسارع إلينا ولما رآنى صرخ قائلا :

ـ « ألا تعرفنى يا سيّدى ؟ أنا "جيم" الصيّاد ! لقد فقدت الورقة التى أعطيتنيها لأسلّمها إلى سيّدى ، وها نحن أولاء نعيش فى هذا المكان منذ سنتين . » وارتمى عند قدمىّ يبكى وينتحب من الفرح .

وكان الرجل ذو اللحية السوداء قد عاد إليه رشده ، فنهض واقفاً وكان هو و « السير هنرى » لا ينبسان ببنْت شَفَة كمن فقدا النطق ، ومما لاشكّ فيه أن الرجلين كانا قد نَسيا فى تلك اللحظة أسباب الشّقاق بينهما ، فقطع « السير هنرى » حبل الصمت وقال يخاطب شقيقه :

ـ « لقد ظننتك ميتاً يا شقيقى الحبيب . . . بحثت عنك فى جميع جبال سليمان وها أنا ذا ألقاك معلّقاً فى الصحراء كصقر من الصقور . »

فقال أخوه بصوت متردّد كمن نسى الكلام بلغته الأصلية :

ـ « وأنا أيضاً حاولت منذ سنتين أن أذهب إلى جبال سليمان ، غير أننى أصبْت عند وصولى إلى هذا المكان بصخرة حطمت ساقى فما عدت أستطيع متابعة المسير إلى الأمام ولا الرجوع إلى الوراء . »

فاقتربت عندئذ أنا منه وقلت :

ـ « كيف حالك يا سيّد "نفيل" ؟ ألا تذكرني ؟ » فقال :

ـ « يا للعجب ! هذا "كاترمان" وهذا "جود" أليس كذلك ؟ اعذروني يا سادة فإني أشعر بدوار في رأسي . . . فعقلي أضعف من أن يتحمل كل هذه الطاقة من السعادة دفعة واحدة ! » .

وفي المساء بينما كنا نتناول الطعام حول النار روى لنا « جورج كورتيس » قصته والحوادث التي مر بها ، وكان أمله الوحيد أن يعرَج على الواحة بعض الرجال فينقلوه إلى أرض الزواو ومنها يعود إلى بلاده .

ولما فرَغ من قصته روى « السير هنري» قصتنا نحن وما لاقينا من أهوال وأخطار ، ولما أريت « جورج » بعض الدرر التي معي تبسّم وقال :

ـ « لم تضيّعوا وقتكم عبثاً . . . » فضحك « السير هنري » وقال :

ـ «كل هذا يخصّ "كاترمان" و "جود" فقد اتفقنا على أن يقتسما هما الاثنان ما نقع عليه من مغانم . »

وخطر لي عندئذ أن نشرك معنا « جورج » في اقتسام الدّرر فقد لَقِيَ في سبيل البحث عنها الهول والإعياء والمرض ، فأطلعت « جود » على هذا الخاطر فأقرّه ، ولكننا لم نعرضه على « جورج » إلا بعد مدة طويلة اضطررنا فيها إلى بذل جهد كبير في إقناع « السير هنري » بقبول العَرْض حتى اقتنع به وقبِلَه ، فلم يجد شقيقه« جورج » بدًّا من القبول .

وعند الصباح استأنفنا السفر عَبْرَ الصحراء ، وكانت رحلتنا شاقّة

مضنية فما كان « جورج » يسير معنا مسافة قصيرة حتى تنزّ عليه الأوجاع والآلام فى ساقه المحطومة ، فنحمله ونسير به فى وسط ذلك الجحيم الملتهب .

وصلنا أخيراً بعد جهد ومشقّة إلى حيث كنا تركنا سلاحنا وحاجاتنا . وبعد ستة أشهر كان رفقائى قد عادوا إلى إنجلترا وكنت أنا فى منزلى الصغير بمدينة « دربان » حيث أكتب هذا الكتاب .

والآن وقد فرغت من الكتابة أبعث بتحية الوداع إلى كل من صحبنى فى هذه الرحلة الفريدة العجيبة .

حاشية : فى اللحظة التى كتبت فيها الكلمة الأخيرة جاءنى عامل البريد يحمل إلىّ رسالة من إنجلترا . إنها من «السير هنرى » وهذا نصّها :

« عزيزى "كاترمان"

كتبت إليك كلمة عاجلة فى البريد الأخير أخبرتك فيها أننا نحن الثلاثة أنا و "جود" و "جورج" قد وصلنا بسلامة الله إلى إنجلترا . ولو كنت رأيت "جود" فى اليوم التالى لوصولنا لما عرفته ، فقد عاد إلى سابق عهده من التبرّج والتأنق والتجمّل . . .

لقد ذهبت أنا و "جود" كما اتفقنا إلى الجوهرى "ستريتر" وحملنا إليه الألماس ليقدّر قيمته ، وترانى أتردد فى أن أطلعك على تقديره فإنه رقم ضخم جدًّا ، وكيفما كان الأمر فما هو بالرقم الأخير فالجوهرىّ

مدهوش من ضخامة الدّرر وصنفها وفرندها الصافى ، ولما عرضت عليه أن يشتريها اعتذر وقال إنه لا يملك المال الكافى ونصحنى أن أبيعها قليلا قليلا حتى لا أزحم الأسواق فبعته بضع درر منها بمبلغ مائتى ألف جنيه .

ألحّ عليك أن تحضُر إلى إنجلترا لتهتمّ أنت نفسك بهذه المسائل ، ولا سيما إذا كنت لا تزال مصمّماً أن تهدى لأخى "جورج" ثلث ما وقعت عليه من هذه الجواهر . أمّا "جود" فيشغله حب التأنق عن حبّ العمل ولكنه والحق يقال لا يزال حزيناً كئيباً على الفتاة "فولاتا" .

لابدّ أن تعود إلينا يا صديقى القديم ، وأن تشترى منزلا تسكن فيه فقد حقّت لك الراحة بعد جهادك الطويل فى الحياة . وعلى مقربة من منزلى دار جميلة للبيع ، وإنى لعلى يقين بأنها تصلح لك كل الصلاح . . . فتعالَ وخير البرّ عاجله ، وإن كنت لم تفرغ من تسجيل ما مرّ بنا من حوادث ومغامرات فإنك تستطيع إتمامه على ظهر السفينة التى ستنقلك إلينا ، فإذا ركبت البحر حالما تتلقى هذه الرسالة أمكن أن تصل إلينا قبيل عيد الميلاد ، فتقضى العيد معنا وترى "جود" و "جورج" وترى كذلك ابنك "هارى" فهو ضيفى منذ نحو ثمانية أيام وإنى لشديد الإعجاب به .

أكتفى بهذا وإلى اللقاء القريب وسلمت .

لصديقك المخلص

هنرى كورتيس

حاشية : إن نابى الفيل الذى قتل المسكين "كيڤا" قد علّقتهما اليوم فى البهو فوق قرنى الثور اللذين كنتَ أهديتهما لى فتألّف منها جميعاً منظر رائع . أما الفأس التى ضربتُ بها عنق "طوالا" فقد وضعتها فوق مكتبى . . .

ه . ك . »

اليوم يوم الثلاثاء وهناك سفينة ستبحر يوم الجمعة إلى إنجلترا ، ولست أجد خيراً من أن ألبى طلب « السير هنرى » وأبحر إلى إنجلترا لأراك يا ولدى « هارى» ولأهتمّ بنشر هذه القصة لأنها مهمّة لا أوَدّ أن أعتمد فيها على غيرى . . .



رقم الإيداع		١٩٩٤/١٧١٩
الترقيم الدولى	977-02-4334-5	ISBN

١/٩١/٣٨٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

ظهر منها:

١ - عمرون شاه
٢ - مملكة السحر
٣ - كريم الدين البغدادى
٤ - آلة الزمن
٥ - الأمير والفقير
٦ - كتاب الأدغال
٧ - بينوكيو
٨ - نبوءة المنجم
٩ - روبن هود
١٠ - دون كيشوت
١١ - ايفنهو
١٢ - جزيرة الكنز
١٣ - كنوز الملك سليمان
١٤ - سجين زندا
١٥ - الزنبقة السوداء
١٦ - مون فليت
١٧ - مقبرة الأفيال
١٨ - الربان بلود
١٩ - تيودورا
٢٠ - أوليفر تويست
٢١ - دافيد كوبر فيلد
٢٢ - فى مهب الريح
٢٣ - الفخ الذهبى
٢٤ - عودة المحارب
٢٥ - حصان طروادة
٢٦ - نساء صغيرات
٢٧ - توم سوير
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ - الربان الجرىء
٣٠ - العم نعناع
٣١ - أم حنان
٣٢ - كوخ العم توم

